الدّيوان

(في الأدبْ والنقـــد)

لمـؤلفـيـــه

عباس محمود العقاد

ابراهيم عبد القادر المازني

الطبعة الرابعة

مقدمة

بسم الله نبتدىء (وبعد) فان كان للسكوت عن الخوض فى احاديث الادب داع فقد زال ذلك الداعى اليوم ، وقد تجددت دواع للكتابة فى اصوله وفنونه ، اخصها الأمل فى تقدمه ، لالتفات الأذهان الى شتى الموضوعات ومتنوع المباحث والحذر عليه من الانتكاس لاجتراء الادعياء والفضوليين عليه ، وتسلل الاقلام المغموزة والمآرب المتهمة الى حظيرته . وكتابنا هذا مقصود به مجاراة ذلك الأمل وتوقى تلك العلل . وهو كتاب يتم فى عشرة اجزاء (١) . موضوعه الأدب عامة ووجهته الابانة عن المذهب الجديد فى الشعر والنقد والكتابة وقد سمع الناس كثيرا عن هذا المذهب فى بضع السنوات الاخيرة وراوا بعض آثاره وتهيات الأذهان الفتية المتهذبة لفهمه والتسليم بالعيوب التى تؤخذ على شعراء الجيل الماضى وكتابه ومن سبقهم من المقلدين . فنحن بهذا الكتاب فى أجزائه العشرة وبما يليه من الكتب نتمم عملا مبدوءا ونرجو انكون فيه موفقين الى الافادة

---

(١) لم يظهر من الديوان فى النقد والادب الا جزءان طبع اولهما فى يناير وثانيهما فى فبراير سنة ١٩٢١ واعيد طبعهما بعد شهرين

مسددين الى الغاية . واوجز ما نصف به عملنا ـ ان افلحنا فيه ـ انه اقامة حد بين عهدين لم يبق ما يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما ، واقرب ما نميز به مذهبنا انه مذهب انسانى مصرى عربى : انسانى لانه من ناحية يترجم عن طبع الانسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة ، ولانه من ناحية أخرى ثمرة لقاح القرائح الانسانية عامة ، ومظهر الوجدان المشترك بين النفوس قاطبة . ومصرى لأن دعاته مصريون تؤثر فيهم الحياة المصرية ، وعربى لأن لغته العربية ، فهو بهذه المثابة اتم نهضة أدبية ظهرت فى لغة العرب منذ وجدت ، اذ لم يكن ادبنا الموروث فى اعم مظاهره الا عربيا بحتا يدير بصره الى عصر الجاهلية .

وقد مضى التاريخ بسرعة لا تتبدل ، وقضى ان تحطم كل عقيدة اصناما عبدت قبلها ، وربما كان نقد ما ليس صحيحا اوجب وايسر من وضع قسطاس الصحيح ، وتعريفه فى جميع حالاته ، فلهذا اخترنا ان نقدم تحطيم الأصنام الباقية على تفصيل المبادىء الحديثة ، ووقفنا الأجزاء الأولى على هذا الغرض ، وسنردفها بنماذج للأدب الراجح من كل لغة ، وقواعد تكون كالمسبار وكالميزان لاقدارها . فان اصبنا الهدف والا فلا أسف . وحسبنا بهذه المقدمة الوجيزة بيانا .

شوقي في الميزان (توطئة)

كنا نسمع الضجة التي يقيمها شوقي حول اسمه في كل حين فنمر بها سكوتا كما نمر بغيرها من الضجات في البلد ، لا استضخاما لشهرته ولا لمنعة في ادبه عن النقد ، فان ادب شوقي ورصفائه من اتباع المذهب العتيق هدمه في اعتقادنا اهون الهينات . ولكن تعففا عن شهرة يزحف اليها زحف الكسيح ، ويضن عليها من قولة الحق ضن الشحيح ، وتطوى دفائن اسرارها ودسائسها طي الضريح ونحن من ذلك الفريق من الناس الذين اذا ازدروا شيئا لسبب يقنعهم لم يبالوا ان يطبق الملأ الأعلى والملأ الأسفل على تبجيله والتنويه به فلا يعنينا من شوقي وضجته أن يكون لهما في كل يوم زفة ، وعلى كل باب وقفة . وقد كان يكون هذا شأننا معه اليوم وغدا لولا ان الحرص المقيت او الوجل على شهرته المصطنعة تصرف به تصرفا يستثير الحاسة الأخلاقية من كل انسان وذهب به مذهبا تعافه النفس . فان هذا الرجل يحسب ان لا فرق بين الاعلان عن سلعة في السوق والارتقاء الى اعلى مقاوم السمعة الادبية والحياة الفكرية ، وكأنه يعتقد اعتقاد اليقين ان الرفعة كل الرفعة والسمعة حق السمعة ان يشترى السنة السفهاء ويكم افواههم ، فاذا استطاع ان يقحم اسمه على الناس بالتهليل والتكبير والطبول

والزمور فى مناسبة وغير مناسبة وبحق او بغير حقَ فقد تبوأ مقعد المجد وتسنم ذروة الخلود ، وعفاء بعد ذلك على الأفهام والضمائر ، وسحقا للمقــدرة والانصاف وبعدا للحقائق والظنون ، وتبا للخجل والحياء ، فان المجــد ســلعة تقتنى ولديه الثمن فى الخزانة ، وهل للناس عقول ؟ !

ومن كان فى ريب من ذلك فليتحققه فى تتابع المدح لشوقى ممن لا يمدح الناس الا مأجورا . فقد علم الخاصة والعــامة شــأن تلك الخرق المنتنة تعنى بها بعض الصحف الاسبوعية . وعرف من لم يعرف انها ما خلقت الا لثلب الأعراض والتسول بالمدح والذم وان ليس للحشرات الآدمية التى تصدرها مرتزق غير فضلات الجبنــاء وذوى المآرب والحزازات . خبز مسموم تستمرئه تلك الجيف التى تحركها الحياة لحكمة كما تحرك الهوام وخشاش الارض . فى بلد لو لم يكن فيه من هو شر منهم لماتوا جــوعا او تواروا عن العيون . هذه الصحف الاسبوعية وهذا شأنها وتلك أرزاق اصحابهــا تكيل المدح جزافا لشوقى فى كل عدد من أعدادها ، وهى لا تنتظر حتى يظهر للناس بقصيدة تؤثر ، او أثر يذكر ، بل تجهد نفسها فى تمحل الأسباب واقتسار الفرص . فان ظهرت له قصــيدة جــديدة والا فالقصائد القديمة المنســية فى بطون الصحف ، وان لم يكن شــعر حديث ولا قديم فالكرم والأريحية والفضل واللوذعية ، وان ضاقت أبواب الدعاء والاطراء فقصيدة او كلمة ينشرها شاعر آخر فيستطال عليه بالشتم ويعير بالتقصير عن قدر شوقى والتخلف عن شــأوه . وهكذا حتى برح الخلفاء وانهتكت الدسيسة . والعجب ان يتكرر هذا يوما بعد يوم ويبقى فى غمار الناس من يحتاج الى أن يفهم كيف يحتــال شوقى وزمــرته على شــهرتهم ومن أى ريح نفخت هــذه الطبــول .

وشرفاء الناس كافة يتبرأون من شبهة تربطهم بتلك الصحافة ويعلمون انها آفة وأى آفة : مدحها تهمة ، وذمها نعمة ، وتقيمهــا

وتقعدها لقمة ، وبقاؤها على المجتمع المصرى وصمة ، الا شوقى . فانه يعتــدها آلة شرف وأحدوثة حســنة فهو يغمس نفســه فى تقريظها ويستزيدها منه ، والطامة الكبرى أن ينصب عجاجات من أوباشها للتكريم بين الناس . ولو عمدة قرية فى مثل ثروته بصر به يمد يده بالسلام الخفى لأولئك الاوباش فى خلوة من خلواته لرآها نقيصة يخزى لها ويود أن تكتم عليه . ونقول فى مثل ثروته اكتفاء بعزة العرف ولا نرهقــه بما فوق ذلك من عزة خواص الانسانيــة وشمم أفذاذ العبقرية . فأما أن تكرم البطـــالة كما تكرم جـلائل الأعمال ، وأن يدعى النـــاس الى المحافل لحمد التسول كما يدعون لحمد الاحسان والمروءة وأن يتنادى الى الاحتفاء بناهشى الأعراض كما يحتفى بمهذبى الأرواح وهداة العقول ، وأن يؤيد نفاية المجتمع وشذاذه كما يؤيد نوابغ البشر وأفراد العصور ، فتلك الهاوية التى لا يبدو قرارها . . . ووا خجلة مصر !! من الذى يصنع ذلك فيها ؟؟ شعراؤها ــ الشعراء فى كل مصر عشاق المثل الأعلى وطلاب الكمال الأسـمى لا يرضون بما دون غاية الغـــايات مطمحــا لاعجــابهم وقبلة لتزكيتهم . ونحن هنا يزكى شعراؤنا من يعد رفق السجانين بهم ضعفا ، وتجاوز الشرطة عنهم ظلما ، واتساع المجتمع لهم رزءا . . . الا انه والله للعـــار وشر من العــار . ولقد استخف شوقى بجمهوره واستخف حتى لا مزيد . ما كفاه أن يسخــر الصحف سرا لسوقه اليه واختلاب حواسه واختلاس ثقتــه حتى يسخرها جهرة ، وحتى يكون الجمهور هو الذى يؤدى بيــده أجرة سوقه واختلاسه . واقسم لو فعلها رجل فى أوربا لما قدر أن يمكث بعدها أسبوعا واحدا فى بيئة محترمة ولئن لم يعرف شوقى مغبتها أدبا ذاجرا وجزاء وافرا يعلمه الفرق بين سوق البقر وسوم البشر
ذاجرا وجزاء وافرا يعلمــه الفرق بين سوق البقــر وسوم البشر
ليكونن بلدنا هذا بلدا يجوز فيه كل شىء ولا يؤنف فيــه من شىء ، ولا يصد المرء أن يخلع فيه عاريا الا اتقــاء طوارىء الجو وعوارض الحر والبرد . اما الحياء فلا ولا كرامة .

ان امرءا تبلغ به محنة الخوف على الصيت هذا المبلغ لا ندرى مم يستنكف فى سبيل بغيته واى باب لا يطرقه تقربا الى طلبته . والحقيقة ان تهالك شوقى على الطنطنة الجوفاء قديم عريق ورد بة كل مورد واذهله عما ليس يذهل عنه بصير أريب ، وليس المجال منفسحا للتفصيل ولا الفرصة سانحة لجلاء الغوامض ولكننا نذكر هنا ما فيه الكفاية لمن يفقه . أما الذين لا يفقهون فلا شأن لنا معهم. نقول ان تهالك شوقى على الشهرة قديم عريق وقد وجد فى مركز أمكنه من قضاء هذه اللبانة اذ كان اشبه بملحق أدبى فى بلاط امير مصر السابق وكانت وظيفته وسيلة لارتباطه بأصحاب المؤيد واللواء والظاهر وغيرها من الصحف المتصلة بالبلاط ، فكانت لا تبخل عليه بالتقريظ والتهليل وتتحاشى أن توسع صفحاتها لنقده كما توسعها لنقد غيره . وانت اذا قلبت الصحف القديمة رايت فيها مئات المقالات فى نقد الأدباء المشهورين كتابا كانوا أو شعراء ولا ترى اسم شوقى عرضة لمثل ذلك من حملاتها . واستثن مقالتين او ثلاثا بدأ بها المويلحى نقده فى صحيفته مصباح الشرق ثم قطع سلسلتها ، وهذا ادعى الى الريبة ، وكان فى أمانة شوقى وموظفين آخرين بالبلاط هبات محبوسة على أقلام الكتاب والأدباء فكان شوقى يوظف منها المرتبات على من يتوسم الناس فيهم العلم بالأدب ويعهدون فيهم سلاطة اللسان ، ليمدحوه فى الصحف ويلغطوا فى المجالس بتفضيله وتقديمه . ولو شئنا لسردنا أسماءهم واحدا واحدا واكثرهم احياء يرزقون . أضف الى هؤلاء من يمدحونه لمشاركتهم اياه فى العادات الخصوصية والمنادمات الليلية ، وهم غير قليل ، ومن اعتادوا أن يرتبوا المواهب على حسب الوظائف والألقاب ، فمن هؤلاء من كنت تسأله ترتيب الشعراء فيقول لك : اولهم محمود سامى باشا البارودى (لأنه باشا عتيق) وثانيهم اسماعيل صبرى باشا (لأنه احدث عهدا بالباشوية والوزارة) وثالثهم احمد شوقى بك (لأنه بك متمايز) ورابعهم حافظ بك

ابراهيم (لانه احرز الرتبـة اخيرا) ويلي ذلك خليل أفندى مطران (لانه حامل نيشــان) فطائفــة الافندية والمشائخ وهلم جرا كانما يرتبونهم فى ديوان التشريفــات لا فى ديوان الآداب ! ! ! فبــذلك وما شاكله اعتاد الناس ان يسمعوا اسم شوقى مشفوعا بأفخم الألقاب غارقا فى صيغ الاطناب والاعجاب . وكأنه يخشى أن ينسى الجمهور اليوم ما وصف به أمس فلا يرضيه الا ان تكرر تلك الصيغ فى كل مرة يذكر فيها اسمه . ففى كل قصيدة هو شاعر الشرق والغرب وشاعر العرب والعجم وامير الشعراء وسيد الأدباء ، وليت شعرى ما ضرورة هــذا التكرار كله ان كان مفهوما بذاته ؟ ؟ ولمــا رسخت هذه الألقاب المأجورة صدقها العامة واشــباه العامة ومن يجاملون السمعة والوجاهة فتناقلوها ورددوها ــ ولم لا يصدقونهاويرددونها وأكثرهم لا يعنى من الأدب بكثير ولا قليل ، وجلهم انمــا يعرفه بالسماع ويلقنه بالاشاعة ؟! فان كان فى الأمر موضع للعجب فهــو أن تسمع ثناء متكررا ولا تسمع نقــدا ــ مع ان الاغراق فى الثنــاء احجى أن يغوى بالمنافســـة ويكثر من النقاد . ومتى علمت عــلة السكوت فقد زال موضع العجب .

واظن السن قد فعلت فعلها فى نفس هذا المعذب بمرض الصيت فغلبه الشك وزاده شحا وقلقا فاصبح لا يقنعه أن يعلل بالدهان ، ويؤكد له التفرد والرجحان ، حتى يرتج أبواب المدح ومنافذه على الخلق قاطبة ، فلا يروى لأحد شعر ، ولا يستحسن قول ، ولا ينادى باسم ، ولا تقرن الى شهرته شهرة . والا فعقوبة من يرتكب جريمة الاجادة معروفة !! وما اطول عذابه ان لج به هذا الوسواس !! وان المحنة لتستدر الرحمة ولكن ارحم النــاس خليق أن يضحك ممن يخال انه يعقم بطن الطبيعة ويســد الآذان ويضيقرحب الفضــاء بالاجــرة .

ولو شئنا لاتخذنا من كلف شوقى بتواتر المدح دليلا على جهله بأطوار النفوس فان الآذان اشد ما تكون اســتعدادا لقبول الذم اذا

شبعت من المدح وأسرع ما تكون الى التغير اذا طالت النغمة . واذا تعود الناس ان يسمعوا ضربا واحدا من الكلام عن انسان تاقوا الى سماع كلام عنه من ضرب آخر . ويارب مشهور انقلبت عليه القلوب بين يوم وليلة واكبر ذنبه عندها انها افرطت فى محاباته ، فهل يدرى شوقى انه يؤجر اذنابه على النيل منه حين يبذل الأجر على المبالغة فى مدحه ؟؟ انه لا يدرى ولا يبرىء المريض أن يدرى بدائه .

وعلى نفسها جنت براقش ،فنحن نكتب هذه الفصول لنظهر لشوقى ومن على شاكلته عجز حياتهم ووهن اسلحتهم ونضطرهم الى العدول عن أساليبهم المستهجنة يأسا من صلاحها فى هذه الأيام . اذ يعلمون أنها لا تعصم من النقد الصحيح ولا تموه على الناس اقدارهم الا ريثما تنكشف اسرارهم . ونقول لشوقى أن سنة الله لم تجر بأن يقوض الغابر المستقبل ، ولكنها قد تجرى بأن يقوض الحاضر الغابر والمستقبل الحاضر ، فان كان يكربه أن يتنفس الناس الهواء كما يتنفسه ولا يشتفى الا بأن يصفر الدهر من كل بقية صالحة فلا شفى الله نفسه من غيظها ولا ابرد عليها وغرة قيظها . وانه ليلذ لنا ان نكون نحن حربه وبلاءه وان نستطيع الادالة للحق من الباطل فى غرض من الأغراض فانها لذة نادرة فى هذا العالم .

وانه على قدر استفاضة الشهرة المدحوضة يكون نفع النقد ولزومه ، فان ابلغ ما يكون العيب اذا كان فاشيا ، واضر ما يكون اذا كان متخذا نموذجا للاحسان وقياسا للاتقان . وليس قصارى الأمر ان يقول عامة القراء تلك قصيدة جيدة ونقول نحن انها قصيدة رديئة فان الذوق والتمييز اذا اختلا لم يكن اختلالهما فى الأدب وحده . وانت اذا استطعت ان تهدى الطبقة المتأدبة من امة الى القياس الصحيح فى تقدير الشعر فقد هديتهم الى القياس الصحيح فى كل شىء ومنحتهم ما لا مزيد لمانح عليه . وان الأمم تختلف ما تختلف فى

الرقى والصلاحية ثم يرجع اختلافها اجمعه الى فرق واحـد : هو الفرق فى الحالة النفسية أو بالحرى الفرق فى الشعور وفى صحـة تمييز صميمه من زيفه اذا عرض علينا فكرا وقولا أو صناعة وعملا .
فليس اصلاح نماذج الآداب بالأمر المحـدود أو القاصر على القشور ولكنه من اعم أنواع الاصلاح واعمقهـا . وسنتناول شـعر شوقى قصيدة قصيدة أو معنى معنى حتى نتبين الأثر جليا فى تحول الآراء وسلامة القياس ، وسيرى القراء أننا نغلظ له البلاغ ونصحه صخا شديدا . وكذلك ينبغى أن يجزى الزيف والدسيسة والاستخفاف بالمقول والاستطالة على الناس بالمقـدرة على كم الأفواه وتسخـير المأجورين . على اننا لا نحتاج أن نقول أن ذلك ليس بما نعنا اعتزام الحق والتزام الصواب ، وفى غنى نحن عن الاحتيال باللين والمداراة على القارىء ليقتنع بما نقول فاننا لا نسال احدا اقتناعه . ومن كان يحتكم برايه الى غير الحجة القاطعة والكلمة الناصعة فليحفظه لنفسه فما تعودنا أن نوجه لمثلة كلاما . وانا لبادئون : ـ

رثاء فريد

اصاب شوقى حين قال ان قصيدته فى رثاء فريد من خيرة قصائده . فانها فى مستوى أحسن شعره الأول والأخير ، وهى صورة جامعة لأسلوبه وطريقته وفكره ، ولو نظمها قبل عشرين أو ثلاثين سنة لهتف لها المخلصون من المعجبين به والذين يتلقون حكمهم عليه من ديباجات الصحف ، ولكانت حجرا فى بناء شهرته ، لأنها من نوع ذلك الشعر الذى كان يشتهر به الشاعر فى تلك الفترة ، وفيها مزاياه ومحاسنه التى لم يكن للشعر مزايا ومحاسن غيرها . فقد كان العهد الماضى عهد ركاكة فى الأسلوب وتعثر فى الصياغة تنبو به الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب او الشاعر أن يوفق الى جملة مستوية النسق او بيت سائغ الجرس فيسير مسير الأمثال وتستعذبه الافواه لسهولة مجراه على اللسان . وكان سبك الحروف ورصف الكلمات ومرونة اللفظ اصعب ما يعانيه أدباء ذلك العهد لندرة الأساليب ووعورة التعبير باللغة المقبولة — فاذا قيل أن هذه القصيدة يتلوها القارىء « كالماء الجارى » فقد مدحت أحسن مدح وبلغت الغاية . واذا اشتهر شاعر بالاجادة فليس للأجادة عندهم معنى غير القدرة على « الكلام النحوى الحلو » وهذه هى قدرة شوقى التى مارسها واحتال عليها بطول المران والتى هى مزية قصيدته فى رثاء فريد وفى أحسن قصائده .

مضى الجيل الفائت وجاء جيلٌ بعده كثر فيه تداول الدواوين البليغة والرسائل الرصينة واخرجت المطابع مئات الكتب التى

صاغها أقدر كتاب العرب وشعرائهم وانتشرت الصحف فأصبح من مألوفات العامة ترديد جملها « النحوية الحلوة » وترجمت الأسفار الافرنجية أو اطلع عليها الناشئة فى لغاتها فعرفوا مزية الكلام البليغ ومعنى الاقتدار الفنى أو الأدبى . وسهلت الأساليب لكثرة ما وردت على الأسماع فلم تعد مرونة اللفظ معجزة ذات بال فتعود القارىء أن يبحث عن المعنى بل لا يكفى القارىء المطلع أن يجد المعنى حتى يبحث عن وجهته ومحصله . فمزية شوقى عند هذا الجيل الناشىء من القراء مزية تتخطاها العين كما تتخطى المألوف لنبحث عما وراءها .

ولهذا طفق يلقى اليهم القصيدة بعد القصيدة ولا يسمع لها رنة ذلك الصدى ، وطفق أذكياء القراء يمرون بشعره الأخير قصيدة فى ذيل قصيدة فيعجبون لتغيره ، اغترارا بما كانوا سمعوه من الصيت الضخم واللقب الفخم ، ويتساءلون : « ماذا أصاب شوقى » ؟؟ ويغالط قراؤه الأقدمون أنفسهم فيخيل اليهم أنهم كانوا يسمعون منه خيرا من هذا الشعر ،وقد يعزون الاختلاف الى كلال الشيخوخة وفتور المزاج ولو كلفوا أنفسهم مؤنة المقارنة بين قديمه الذى يعجبون به على الذكرى ، وحديثه الذى يغضبون أنفسهم على استحسانه فلا يقدرون — لعرفوا موضع وهمهم ولعلموا أن شوقى الأمس هو شوقى اليوم ولكنهم هم الذين تغيروا .

نعم تغير جلة القراء فأصبح لا يرضيهم اليوم ما كان فوق الرضى قبل ثلاثين أو عشرين سنة ، لا بل قبل عشر سنين . ولا عجب فى ذلك ولا فى بقائهم على احلال شوقى محله الأول مع انحدار شعره فى نظرهم . فانهم يرون منزلة شوقى بالعادة التى لم تتغير منذ قدروه للمرة الأولى . ولكنهم يفهمون شعره اليوم بالعقل الذى نما وترقى واتسع اطلاعه . وقد جمد شوقى فى مكانه لأنه جعل اطراء الناس غايته فلما بلغها لم يحس فى نفسه نشاطا للنمو . ثم لا تنس أن القارىء يرتقى فى الاختيار أضعاف ما يرتقى الشاعر فى الأداء والابتكار . وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فان أخصب أيام

الشعر ايام الشباب . واذا ارتقى فانما يكون ذلك باحتثاث الطبع وادمان الاطلاع والتزيد من المعرفة وشوقى لم يجد من نفسه ولا من الناس داعيا الى ابتغاء المزيد وقد علم أصحابه أن زاده من القراءة لا يتعدى كتب القصص والنوادر .

وقد احس شوقى بالتغير من حوله فآده أن يستدركه وأعيته الزيادة فى سن التقهقر فعوضهـا بزيادة الطنطنة كما يزاد ترويج السلعة كلما خيف عليها الكساد . ولما سئل عن غرضه من قصيدته فى فريد وقرىء له فى نقدها مالا يحب بهت على ما سمعت وقال : تلك قصيدة أردت بها الكلام فى فلسفة الموت . . .

فلننظر اذن فلسفة الموت التى استنبطتها حكمة شوقى :

تعود ايها القارىء الى هذه القصيدة فلا ترى فيها مما لم تسمعه من أفواه المكدين والشحاذين الا كل ما هو اخس من بضاعتهم وابحس من فلسفتهم — كلها حكم يؤثر مثلها عن حملة الكيزان والعكاكيز اذ ينادون فى الأزقة والسبل : « دنيا غرور كله فان ، الذى عند الله باق ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، من قدم شيئا التقاه » الخ . . . الخ .

تلك اقوال الشحاذين وهذه اقوال (امير) الشعراء .

كل حى على المنيـة غـاد ... تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الاولون قرنا فقـرنا ... لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم ... غير باقى مـآثر وايادى

الخ . . . الخ .

وما خلا هذه العظات مما نحا فيه فيلسوف الموت منحى الابتكار ونزع فيه الى الاستقلال بالرأى فمعناه احط من ذلك معدنا وأقل طائلا وأفشل مضمونا . والجيد منه لا يعدو أن يكون من حقائق التمرينات الابتدائية « كالزبيب من العنب و ٢ + ٢ = ٤ » وهلم جرا . واكثره آتفه من هذه الطبقة فالقصيدة اما بيت حذفه واثباته

سواء او بيت حذفه أفضل ، مثل اخباره بأن جر النعش فى مركبة أو حمله على الرقاب سواء .

لا وراء الجياد زيدت جلالا   منذ كانت ولا على الأجياد

ومثل وصفه القبر ذلك الوصف الذى ما احسب احدا يمر بقبر فيذكره الا انقلب الاعتبار والهيبة فى نفسه هزؤا وعبثا . وذاك حيث يقول :

كل قبر من جانب القفر يبدو   علم الحق او منار المعاد

وعلى هذا يكون تعريف القبر فى جعرافية شوقى الاخروية : « انه منار يقام على جانب القفر لهداية قوافل الموتى الى طريق الآخرة لئلا يضل احدهم النهج او يصطدم بصخرة فى دروب الموت !! » ومثل تحذيره الناس من تربص الأجل بهم ايقاظا ونياما كأنما الموت يلتمس غرتهم ليأخذهم على سهودة .

وعلى نائم وسهران فيها   اجل لا ينام بالمرصاد

ومثل تيئيسه من رجعة الموت الى أهله وتخطئته الذين يزعمون غير هذا الزعم يقول ذلك بلهجة العارف لما يجهله غيره كأنها مسألة خلافية طال فيها الجدل وانشطرت عليها احزاب الفلسفة ولم يفرغ الناس يوما من بحثها وتقليب وجوهها والتنقيب عن اسانيدها وشواهدها حتى جاء شوقى ففض الخلاف ببيتيه هذين .

سر مع العمر حيث شئت تؤبن
وافقد العمر لا تؤب من رقاد
ذلك الحق لا الذى زعموه
فى قديم من الحديث معاد

ولا غرو فقد كان أهل الميت اذا مات فى برلين او لندن أو الهند لا يزالون يترجون يوم أوبته ، ويعدون أيام غربته ، وكأن العلماء فى

كل قطر وبلد يتساءلون امن مات غريبـــا عن دياره أيؤب الى أهله يوما ناضر الصفحة متهلل الجبين ممتعا بالعافية أو لا يؤب ؟؟ فكان فريق منهم يقول « نعم » وفريق يقول « بل لا » الى ان جاء شوقى فأفتى فتواه الجازمة وقال « بل لا يؤب » فانحسم الاشكال وقطعت جهيزة كل خطيب :

قال ناقد اديب : ان الشاعر مسبوق الى هذا الحل ، سبقه اليه قائل المثل العامى « اعطنى عمرا وارمنى فى البحر » وانه كان أسوأ منه تعبيرا واقل ظرفا اذ يخاطب القارىء بقوله « أفقد العمر » وذلك العامى يتلطف أن يجبه الناس بهذا الخطاب ونقــول : ان توارد الخواطر معروف مسلم به من جهـــة ، ومن جهـــة اخرى فان من يتجشم لأجل الانسانية أن يغوص على هذه المسائل العويصة ويسهر الليالى فى فض مغلقاتها وحل مشكلاتها لحقيق بأن يتجاوز له الناس عن حسن المخاطبة ولا يكلفوه أن يأبه لمثل هذه الهنات !!

ولنعد الى ما كنا فيه من نقل ابيـــات شـــوقى التى لم يرد فى فلسفة الشحاذين مثلها ــ فمن هذه الأبيات نبأ عجيب فحواه أن فى العالمين نعشا واحدا تنقلهم اعواده من عهد عاد .

تستريح المطى يوما وهذى تنقل العالمين من عهـد عاد

فان لم يكن يعنى هذا ويزعم ان الأمم لا تملك منذ وجدت غير نعش واحد تنقل عليه موتاها فسبحان من يعــلم مراده . والإ فان كان يعنى ان هذه الخشبة التى ينقل عليها الميت قديمة العهد تبلى وتجدد فأى شىء لا يمكن أن يقال فيه ذلك ؟؟ اية مطيـــة لا تنقل العالمين من عهد عاد كما ينقلهم النعش ، وما بال اى انسان لا يقول اليوم أو بعــد مائة جيل انه ركب مركبـــة فرعون ونام على سرير قيصر ؟؟ ويقول :

كرة الأرض كم رمت صولجانا وطـوت من ملاعب وجيـــاد

شاعر عصرى ولا شك !! الا تراه يدين بكروية الأرض ؟؟ ولكننـــا

نخشى أن لا يكون شوقي قد ذكر الكرة الا ليذكر بعـدها الصولجان والملاعب والجيـاد ، بل نحن لا نخشى ذلك . نحن على يقين منـه ، فهل كذلك يكتبون الحقيقة الخالدة ؟؟ ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لأنها حقائق الانسانية بأسرها قديمها وحديثها عربيهـا واعجميها . وانت اذا نقلت هذا البيت الى اية لغة لم يكن معناه الا هكذا : « هذه الغـبراء أسقطت من أيدي الملوك قضبا كثيرة ودثرت ميادين لا عداد لها من ميادين السباق ، وابادت خيلا لا تحصى » — فما أشبه الحكماء بالمغرورين ان كانت ثرثرة كهذه تقع من نفس أحد موقع الحقيقة الخالدة .

ويقـول :

تطلع الشمس حيث تطلع صبحا
وتنحى لمنجـــل حصـــاد
تلك حمـراء فى السـماء وهذا
اعوج النصل من مراس الجـلاد

اليوم لا تخشى بغتة الأجل فى كل حين !! فالشمس لا تضرج بدم قتلاها الا حيث تطلع صبحا (أى حين تطلع حمراء وفى السماء . اما أن طلعت فى الأرض فهذا شيء آخر) والقمر لا يكون منجلا حصـادا الا فى أيام الالهة أو المحاق وفيما عدا هذه الأويقات لا قتل ولا حصاد فمن مات ظهرا أو عصرا أو لعشر بقين أو مضين من شهر عربي فلا تصدقوه فان موته باطل ...

الا أن شعرا يسف الى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغـة العرب الا زغل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيرا . جعلوا التشبيه غاية فصرفوا اليه همهم ولم يتوسلوا به الى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية وكأن الناس فقدوا قدرة الاحساس بها على ظواهرها . نظروا الى الهلال فاذا هو أعوج

معقوف فطلبوا له شبها ، وهو اغنى المنظورات عن الوصف الحسى ، لأنه لن يهرب يوما فنقتفى اثره ولن يضل فنسترشد بالسؤال عنه وان كان لابد من التشبيه فلنشبه ما يبثه فى نفوسنا من حنين أو وحشة أو سكون أو ذكرى ، ففى هذا لا فى رؤية الشكل تختلف النفوس باختلاف المواقف والخواطر . طلبوا ذلك الشبه فقال قوم هو كالخلخال ثم رأوا ان لابد للخلخال من ساق فقالوا هو فى ساق زنجية الظلام ، وجاءتهم من هذا الطريق زنجية فأحبوها وشببوا بها الى آخر ما تتدهور اليه هذه الأوهام . وافتن قوم فقالوا هو كالمنجل ثم التمسوا له شيئا يحصده فقال ابن المعتز .

انظر الى حسن هلال بدا
يهتك من انواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من فضة
يحصد من زهر الدجا نرجسا

فالهلال منجل وقد صيغ من فضة وهو يحصد النجوم والنجوم نرجس ، ولا حصد هناك ولا محصود فماذا وراء هذا كله ؟؟ هذر فى هذر . وجاء شوقى فقال انه منجل يحصد الأعمار فاخطأ حتى التشبيه الحسى لأن الاعمار لا تحصد حين يكون القمر كالمنجل فحسب ، واما فى سائر الأيام. فلا يكون القمر منجلا فى شكل ولا فى حقيقة . فما المراد بكلامه ؟؟ ومثل هذا قوله بعد ذكر كرة الارض :

والغبار الذى على صفحتيها ... دوران الرحى على الأجساد

وذلك من قول ابى العتاهية :

النـاس فى غفلاتهم ... ورحى المنية تطحن

مثل لفناء الأعمار بالطحن ولا باس بهذا التمثيل ، واقترض للطحن رحى وجعل المنية الطاحنة فبلغ حدا لا يحتمل بعده الاستطراد ، فعز على شوقى الا ان يكون لهذا الطحين غبار وان

يكون الطحين كله غبارا وأن يكون الغبار هو دوران الرحى . عند هذا يركد العقل ويجم الكلام .

ولم افهم البيتين الآتيين بعد قوله : « تلك حمراء فى السماء .. الخ »

ليت شعرى تعمدا واصرا
أم اعانا جناية الميلاد ؟
كذب الأزهران ما الأمر الا
قدر رائح بما شاء غاد

يعنى الشمس والقمر . فما التعمد والاصرار وما اعانة جناية الميلاد وما الفرق بينهما ؟؟ ايريد أن يطبق على الأزهرين المادة القانونية : مادة القتل عن تعمد وسبق اصرار ؟؟ وفيم كذبا وكيف يكون جريان الشمس والقمر فى حيث ارسلتهما القدرة المحركة لهما للقدر الرائح الغادى ؟؟ وهل التعمد والاصرار واعانة الميلاد الا رواح القدر وغدوه بما يشاء ؟؟ اسئلة لا جواب عليها ولا لوم فى ذلك على شاعر الانس والجن فلعل هذه من أبياته التى صنعها لاخواننا الجن واختصهم بها دوننا .

ويقول فى نعش فريد او حقيبة الموت كما سماه :

لو تركتم لها الزمام لجاءت
وحدها بالشهيد دار الرشاد

اما دار الرشاد فهى مصر كما ارادت القافية لا كما أراد شوقى ولا كما اراد التاريخ والاثر . وإما معنى البيت فيقول شوقى ان نعش فريد لو لم يمنعه ناقلوه الى مصر لسعى وحده الى مصر !! ﷲ ما أقدر رائى الشموس على احالة الجلجل مضحكا والتقديس زراية : نعش يسعى وحده فى البرور والبحار ويجوس خلال المدائن والديار ، يعتدل وينعطف ، ويمضى ويقف ، حتى يستقر ملهما عند قبره ، جادا لا يلوى على شىء قبل بلوغه ، والناس متنحون عن

طريقه ، تاركيه يتهدى لطيته .. افمن هذه الصور ينتزع الشعر مادة الرثاء والاجلال ؟؟ الا ساء ما اصاب ذكرى الرجل من اجلال شوقى . اراد ان يقول كما قال البحترى :

ولو ان مشتاقا تكلف فوق ما
فى وسعه لسعى اليك المنبر

فكبا كبوة حاطمة .

ولقد طمح شوقى الى معارضة المعرى فى قصيدة من غرر شعره لم ينظم مثلها فى لغة العرب ولا نذكر اننا اطلعنا فى شعر العرب على خير منها فى موضوعها . والمعرى رجل تيمم هذه الحياة محرابا واجتواها غابا وصدف عنها سرابا — لابس منها خفايا أسرارها ، واشتف مرارة مقدارها ، وتتبع غوابر آثارها ، وحواضر أطوارها ، فاذا هو نظم فى فلسفة الحياة والموت كما تراءت له فذلك مجاله وتلك سبيله . وأين شوقى من هذا المقام ؟؟ انه رجل أرفع ما اتفق له من فرح الحياة لذة يباشرها أو تباشره وأعمق ما هبط الى نفسه من آلامها اعراضة امير أو كبير ، وما بمثل هذا ينظم الشاعر فى فلسفة الموت والحياة .

ولكى لا يسبق الى وهم شوقى اننا نكبر قصيدة المعرى تعصبا للقديم وايثارا للعرب على العجم نلقى اليه ها هنا درسا فى الشعر قد ينفعه .

فاعلم ، أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من يعددها ويحصى أشكالها والوانها . وان ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه وانما مزيته ان يقول ما هو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به . وليس هم الناس من القصيد أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع وانما همهم أن يتعاطفوا ويودع احسهم واطبعهم فى نفس اخوانه زبدة ما رآه وسمعه وخلاصة ما استطابه أو كرهه . واذا كان كدك من التشبيه أن تذكر شيئا احمر ثم تذكر شيئين أو اشياء مثله فى الاحمرار فما

زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة اشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان فان الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها وانما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والالوان من نفس الى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا وكانت النفوس تواقة الى سماعه واستيعابه لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورا . فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا ان صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان احساسا بوجوده . وصفوة القول أن المحك الذى لا يخطيء فى نقد الشعر هو ارجاعه الى مصدره : فان كان لا يرجع الى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وان كنت تلمح وراء الحواس شعورا حيا ووجدانا تعود اليه المحسوسات كما تعود الأغذية الى الدم ونفحات الزهر الى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائغة وما أخال غيره كلاما أشرف منه بكم الحيوان الأعجم .

فان تبين لك ما نقول فانظر مكان قصيدتك من قصيدة المعرى التى اجترأت على معارضتها .

نظر المعرى الى سر الموت فلم يره فى مظهره الضيق القريب ، حادثا متكررا تختتم به حياة كل فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميقة . رآه كما بدا منذ القدم لبداته الحكماء وأصحاب الأديان ، وكما تبطنه من قبل بوذا وكنفشيوس ومانى : حربا سرمدية قائمة بين قوتين خفيتين ميدانهما كل نفس حية وكل ذرة فى طباق الأرضين وأجواز السماوات ــ هاتان القوتان هما الخير والشر أو

هما النور والظلام أو هما الحق والباطل أو هما البقاء والفناء . لكل منهما جنود لا تغفل ، وأعوان لاتني تقبل وتدبر ولا تتمهل . والعوالم علويها وسفليها تشهد منذ كانت وقعات هذه الحرب ومساجلاتها ، ولتشهدنها اليوم وغدا ، ولتشهدنها الى ختام الزمان ان كان للزمان ختـــام .

نظر المعرى الى العالم الأرضى فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نحبا مقضيا ما احس ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائما فى كل كيان قائم ، متقادما فى كل ركن متقادم :

كل بيت للهـــدم ما تبتنى الور
قاء والســيد الرفيـــع العمـــاد

وعلم ان القوتين اللتين هذا أثر نضالهما فى الأرض فاعلتان هذا الفعل لا محالة فى أشرف كواكب الســماء واسماها ، وأضوأ عوالم النور واذكاها .

زحـــل اشرف الـــكواكب دارا
من لقـــاء الردى على ميعـــاد

ولنار المريخ من حـدثان الدهـر
مطف وان عـــلت فى اتقـــاد

والثريا رهينة بافـتراق الشمل
حـتي تعـــــد فى الأفـــراد

لا بل رأى الكون (١) والفســاد متصاحبين متلاحقين فى كل حال .

واللبيـــب اللبيـــب من ليس
يغتر بكون مصـــيره للفســـاد

---

(١) الكون هنا وفى البيت مصدر كان بمعنى حالة الوجود لا بمعنى العالم

وكانت العبرة التى استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق افراح الانسان واحزانه ، ولو نطق الأبد لما تكلم بغير قوله :

غير مجـد فى ملتى واعتقـادى
نـوح باك ولا تـرنم شـاد
وشـبيه صوت النعى اذا قيس
بصوت البشـير فى كل نـاد

واذا ذكر متاعب الحيـاة فكانما يذكرها ليصرفها عنـه بنظره القانط المستخف فيقول :

تعب كلهـا الحيـاة فما اعجب
الا مـن راغب فى ازديـاد
ان حزنا فى ساعة الموت أضعاف
سرور فى سـاعة الميـلاد
اسـف غير نافـع واجتهـاد
لا يؤدى الى غنـاء واجتهـاد

كذلك كان احساس المعرى بسر الموت ، وهو اوسع احسـاس قدر لبشرى أن يحسه من ذلك السر الرهيب .

أما انت فقد نظرت فماذا رأيت ؟؟ لعلك أدرى بما تنظـر وترى ولكنا نقول لك ما لست تدريه . انك لم تر شيئا يحتاج النـاظر فى رؤيته الى غير الحواس ــ انك تقول « لم يدم حاضر ولم يبق باد » حيث يسوى المعرى بين وكر الورقاء ومعاقل العظماء وبين منـازل الارض ودارات السـماء . أردت أن تعمم كما عمم ففاتك مغـزى تعميمه وجئت بكلام لا لباب له ولا ترضى قشوره ، اذ ما علمنـا بين الحضر والبدو من فرق فى التكوين يدعو الى توهم الاختلاف بينهما فى حكم الموت . وانما يقولون هذا خبر سمعه الحاضر والبادى لأن احدهما قد يسمع ما ليس يسمعه الآخر لتباعد الدار او انقطـاع

الاخبار ويقولون يتسابق اليه الحاضر والبادى لمثل هذا السبب .
واما قولك يموت من فى الحاضرة والبادية فكعدك الناس اسما اسما
وقولك عن كل واحد انه يموت ، وعلى انه لو صح ان يقال هذا فأى
فضل فيه لغير الحواس واى دليل فيه على اللب الحكيم والطبع
القويم ؟؟ وتقول فى القبر انه منار المعاد .

وزمـــام الركاب من كل فـج

ومحـــط الرحـــال من كل واد

وهل بين واد وواد فرق فى هذا الحكم ؟؟ وتقول :

وعلى نائم وســـهران منهـــا

قـدر لا ينـــام بالمرصـــاد

وهذا كذلك بل أضعف أما قولك .

لبـــد ســـاقه الـردى واظـن

النسر من ســهمه على ميعـــاد

فما احسبك تدعى فيه لنفسك أكثر من فضل السرقة .

واذا تجاوزنا هذا الباب الى غيره وعمـدنا الى مقارنة الابيـات
المتشابهة فى القصيدتين الفيناك تخطىء فى كل بيت تسرقه من المعرى
او تاتى بالبهرج من حيث أتى هو بالذهب .

المعرى يقول :

رب لحد قد صار لحـــدا مرارا

ضاحك من تزاحـم الاضـــداد

ودفـــين على بقـــايا دفـــين

فى طـــويل الأزمـــان والآبـــاد

وليس اجل ولا اصدق من هذا الشعر . وان تعبيره عن تعاقب
الدفين بعد الدفين فى الموضع الواحد بتزاحم الاضـــداد وقوله ان

اللحد يعجب ويضحك من هذا الزحام لأبلغ ما ينطق به اللسان فى وصف تهكم الموت بالأحياء وعبث التزاحم على الحياة . ويسلط الله عليك نفسك فتسول لك ان تحاكى هذه المعجزة البيانية بقولك .

هل ترى التراب احسن عــدلا
وقيـــاما على حقــوق العبـــاد
نــزل الأقـــوياء فيـــه عــلى
الضعفى وحل المـــلوك بالزهــاد
صفحـــات نقيـــة كقــلوب
الرسل مغســولة من الاحقــاد

التراب ينصف العبـــاد ويصون حقوقهم احسن صـيانة لانه يبيدهم جميعا !! فبحقك يا هذا كيف يكون تضييع الحقوق ؟؟ وما الذى لقيه أضعف العباد من اقواهم واظلمهم أشد من هذا الانصاف والصيانة ؟؟ ويخيل اليك أنك ابدعت حين قلت ان الملوك يستضيفون الزهاد فى التراب ، وهذا من فضائل الموت !! ، فهل تعنى ان الزهاد لا يستضيفون الملوك فيه على السواء ؟؟ فان كنت لا تعنى ذلك فقد قلت ما تعلم انه خطأ وقلته لغير غرض ـ أما المعرى فقد احاط بهذا المعنى فلم يخسر شيئا من الصدق او بلاغة الاسلوب حين قال :

وعزيز على خلـــط الليـــالى
رم اقدامــكم برم الهـــوادى

وهذه هى البلاغة الجادة التى لا لعب فيها .

وعندك ان طهارة القلب هى موته . فاذا خمدت نفس الميت صار قلبه نقيا مغسولا كقلوب الرسل . أفليس من موت القلب ان لا تزال تلهج بذكر الرسل حتى جعلتهم موتى القلوب ؟؟

يقول المعرى :

خفف الـوطء مـا اظـن اديم
الأرض الا من هـذه الأجســـاد

وانت تقول :

والغبـــار الذى على صفحتيهـا
دوران الرحى عـلى الأجســـاد

المعرى يسأل :

ابكت تلـــكم الحمــامة ام غنت
على فرع غصــــنها الميـــاد

وانت تأبى أن لا تكون لقصيدتك حمامة تغنى وتبكى فتقول :

ضاق عن ثكلهـــا البـكى فتغنت
رب ثكل ســــمعته من شـــاد

ثم يروقك وانت تبـــارى المعرى مبـــاراة المضحكين ان تزعم لناجيتك ولنفسك انك نظمت فى فلسفة الموت وبذذت شيخ المعرة فى آية من آياته !!

على انك قد تعذر بعض العذر فى قصورك من هذه الناحية لأنك مجبر فيه لا مخير . اما الأمر الذى لا نعلم لك منه عذرا فأن ترثى رجلا كفريد بقصيدة لا يرد فيها اسمه ولا سيرته الا عرضـــا ، وأن لا يخرج تأبينك له عما قد يرثى به فرد من غمار الناس . ولو كان ذاك لضيق فى مضطرب القول او لنقص فى بواعث الأسى على الرجل لما خفى تعليله ولكنك تعلم كما نعلم ان مصر الحديثة لم تنجب من دعاتها رجلا لقى فى حياته وموته مما يستثير دفائن الحزن ويطيل مدد الرثاء بعض ما لقيه فريد . فتهاونك فى قضــــاء حقه وتوفية قدره لا يكون الا لعجز أو كنود . فان لم يكن هذا ولا ذاك فلأحنــة لا تزال تغلى فى نفسك على الرجل بعد موته . وانت بأسبابها اعلم .

رثاء عثمان غالب

من فساد الذوق ان يقصد المرء المدح فيقذع فى الهجـاء ، أو ينوى الدم فيأتى بما ليس يفهم منه غير الثنـــاء . واشد من ذلك ايغالا فى سقم الذوق وتغلغلا فى رداءة الطبع شاعر يهزل من حيث أراد البكاء ، وتخفى عليه مظان الضحك وهو فى موقف التأبين والرثاء والعبرة بالفناء .

ولست أدرى أى ما جن من نظامينـــا قال هذا البيت فى رثاء احدى العيان :

رحمة العـود والكمنجـا عليهـا
وصـــلاة المزمـــار والقـــانون

ولكن لا ريب ان قائله ، مهمـــا سمج منه الهذر فى مثل هـذا الموقف ، أو عيب عليه سوء الظن بفن الفناء واقدار ذويه ــ اسلم ذوقا فى بيته هـذا من شوقى فى رثائه لعثمان غالب . لأنه تعمـد الهزل فقاله وما كان شوقى كذلك حين رثى ذلك العالم الجليل بمثل هذا الهراء .

ضجـت لمصرع غالب	فى الأرض (ملمكة النبات)
امست (بتيجـان) علي	ه من الحـداد منكسات
قامت على (ساق) لغي	بته واقعدت الجهات !!!
فى ماتم تلقـى الطبي	عة فيه بين النائحات
وترى (نجوم الأرض) من	جـزع موائد كاسفات

والزهــر فى أكمــامه يبكى بدمع الغــاديات
حبست اقاحى الــربى والعهد فيها مومضات !!
وشقائق النعمـــان آ بت بالخــدود مخمشات

بل مما لا مراء فيه ان صاحب هذا الرثاء قد صدق نية الرثاء وبر بوعده لنفسه واغتبط بما دب عليه من المعانى الدقيقه والنكات الأنيقة ... لأنه استطاع ان يذكر الزهر بمناسبة ولو فى غير موضعها ، ولعمرى كيف يكون شاعرا من لا يذكر الزهر أو الثمر كما يذكر العابد الله والعاشق ليلاه . يذكرهما فى غضبه ورضاه ، وفى لهوه وبلواه ، ، وفى فرحه وبكاه ، وفى غيظه وهواه ، وفى يقظته وكراه ــ ويذكرهما حين يصف الصحراء القاحلة ، وحين يتمثل المدينة الآهلة ، وحين يروى عن النعمة السابغة أو يتحدث بالمصيبة القاتلة والمنية العاجلة . وكيف يكون مطبوعا على الفــن ، مدلها بفتن الجمال من اذا وصف الجثة الحائلة ، لم يقــل انها صفراء كالاقحوانة ، أو المتميز من الحنق لم يحسب انه يتفلق كما تنفلق الرمانة ، أو المتدلى من المشنقة لم ير انه يهتز اهتزاز البانة ، أو قطع الرقاب والعياذ بالله لم يشبهه بقطف الريحانة !! وشوقى لم يوف هذا الفرض فحسب بل أرانا أن الأزهار لا تجرى على سنن المجاملة فى النواح ، فعل النساء ، وانما تحزن على من هى غرس يده وجنى معرفته ونبت نعمته ورعايته . فلو فجعت البلاد مثلا بموت عالم من علماء المعادن لما سمح لزهرة واحدة ان تذيل دمعة أسفا لفرقته وانما كان لا يضيق به الخيال الفسيح والذوق المليح فكان يجعل اسوداد الفحم حدادا عليه ، وصلابة الحديد جمودا لهول المصيبة فيه . وكان يجعل اصفرار الذهب وجلا ، واحمرار النحاس احتقانا ، ولين القصدير ذوابانا ، الى آخر ما هنالك من ألوان العذاب التى تلم بالمعادن الصلاب ــ ولو كانت النكبة فى عالم « جيولوجى » لما قال شيئا من ذلك بل كان يقــول (مثلا) ان الطبقة الرملية فى ناحية كذا تجثو التراب على رأسها فزعا ورعبا،

وأن الطبقة الجيرية فى موضع كذا تختنق من ثقل الوطأة عليها ، وأن
هذه الطبقة أو تلك ساخت بها الأرض أو تزلزل بهـا الكمد وناهيك
ما كان يقوله لو نفذ القضاء فى شاعر جليل فانه أبقـاه الله لن يقنع
بأقل من الحـاق الزحاف والأقواء والخبن والسـنـاد وسائر علل
العروض والقافية بكل قصيدة قيلت أو تقال من يوم خلق الله الشعر
الى يوم يبعثه من القبر الذى الحده فيه الشعراء الكذبة والنظامون،
وأى تفسير أو تأويل كنت لا تسمعه من الشاعر النـدابة فى صهيل
الخيل ونهيق الحمير ومواء القطط وعـواء الكلاب ونقيق الضفادع
لو كان العالم المفقود من علماء الحيوان لا من علماء النبات أو صاغة
الكلام ؟؟ هذا ما نسأل الله اللطف فيه فاننا ان احتملنا حداد الألوان
والأشكال فلن نطيق الصبر على حداد الأصوات والأقوال .

ولكن وا أسفاه !! لابد من التضحية ، لابد من الفقدان والخسارة
فى هذه الدنيـا الفانية !! وليس من السهل أن يقول الانسـان ان
الأشجار قامت على « ساق » واقعدت الجهات الست التى ما برحت
قاعدة فى مكانهـا منـذ الأزل ، ولا من الهين أن يحشر الطبيعـة
« لا اكثر » فى مأتم تكون فيـه احدى النائحـات « فقط » ولا من
اللعب أن يصل فى كل ساعة الى ابكاء الرياحين والأزهار والمعـادن
والأحجار ــ ولا سيما النفسية منها ــ كلا ليس ذلك بالقول الهزل
ولا بالمركب السهل ، ولكى يقول الرجل الفانى منا هذا القول ويهبط
الى قرار هذه المعـانى العميقـة ، لا غنى له عن التضحية بالذوق
السـليم والوصف الصـادق والتخيل الصحيح والشـعر الجدى
والشعور القوى ، وهذه كلها ضحى بها شوقى على مذبح فنـه فما
تأوه ولا صرخ ولا لمح الناظر على وجهـه امتعاضة حزن أو مسحـة
أسى . نعم كل ذلك ضحى به شوقى ولا مبالاة . . . تقول ولكنه مع
ذلك كان سخيفا غثا ضعيف الملكة مشنوء السليقة . . . ونقول هذا
صحيح ولكنـه قال ما اراد ان يقول وتفنن وروى . أجل !! انه لم
يرث ذلك الرثاء المكشوف المفتوح الذى يرثيه أولئك السذج البلهاء ،
الذين يحسبون ان الاخصائيين اذا ماتوا فجعوا احدا غير المواد التى

تفرغوا لدرسها وتوفروا على البحث فيها ، والذين اذا أودى أحد أولئك الاخصائيين أسفوا ووصفوا أسفهم هم عليه (مباشرة) ولم يتخلوا عن مهمة الحزن ليلقوها على عاتق الزهر تارة وعلى غارب السحاب تارة أخرى ، أو يكلوها الى الطبيعة كلها بارضها وسمائها وامواتها واحيائها ويجعلوا النفس الانسانية أو نفس المصاب بالبلية ، آخر من يحس في هذا الكون بفقد عزيز ! !

ولقد كنا نود أن نقف عند هذا الحد في الابانة عن براعة شوقي وافتنانه ، والاشادة بخلابته وبيانه . لولا اننا آثرنا أن لا يفوتنا سؤاله عن أنواع من النبات لم يسمها في تلك المناحة التي أقامها - ماذا كان من شأن القطن باصنافه وماذا صنع القمح والشعير بل ماذا صنع البصل والكراث والملوخية والقثاء في ذلك المأتم العميم الذي كانت الطبيعة فيه احدى النائحات « فقط » ؟؟ انه سكت عن هذه الأنواع وغيرها فهل ذاك لأنها لم تكن من اتباع النباتي الكبير أم لأن من خواص تلك الأنواع التي يعلمها الشعراء ويجهلها النباتيون انها مضيعة للعهد ناكرة للجميل ؟؟ أم لعلها لا تنتمي الى عالم النبات وان ردها الناس اليه ، كالمرجان يحسبه قوم نباتا ويحسبه آخرون جمادا وهو من عالم الحيوان ؟؟ أم هو الصدق في الخبر والأمانة في التبليغ اوحيا اليه ما قال فذكر فريقا وسكت عن فريق : رأى الرجل الاقاحي باهتة ذابلة على غير عهدها وابصر شقائق النعمان تخمش خدودها فابرأ ذمته وأدى أمانته ، ولم ير القطن ولا القمح ولا سواهما يصنع شيئا فربأ بشعره عن شهادة الزور والتخرص وسجل عليها ما سجل من جمود الطبائع وقسوة القلوب ؟؟ تلك أسئلة ما كنا نسألها لولا اهميتها وخطورتها ولولا اننا تعلمنا منذ الآن أن نرقب أعين كل جامد ونابت وحي ، حاشا الانسان ، تعرفا لجلائل الأنباء واستطلاعا لخفايا الحوادث قبل أن تنبض بها أوتار البرق ويطير بها التجابون ، ولو اننا عرفنا ماذا ينبغي أن تحس الامة من موت الاخصائيين من رجالاتها ، وانها مسئولة ان تضن بأرواحهم مخافة ان تمتقع نرجسة أو تسود فحمة ...

انتقل شوقى من رثاء العالم النباتى الى رثاء العـــالم الطبيب فقال مفصلا مقسما :

امـــا مصـــــاب الطـب فيـــه
فســـل بــه مـــلأ الاســـــاة
اودى الحمــــام بشيخــــهم
ومآبهـــــم فى المعضــــــلات
ملـــقى الـدروس المســـفرات
عن الغـــــروس المثمـــــرات

والقارىء يرى انه لم ينح نحــوه الأول . وما كان ذلك بلا ريب استهجانا له أو توبة عنه وانما خانته القريحة وخذ له الاختراع . والا فماذا كان يمنعه أن يقول فلا يخرج عن تلك الوتيرة ــ مثل هذه الأبيات .

طـــــربت لمصرع غـــــالب	**فى الأرض رســـل الحميـات**
قد مات (غــالب) جنـــدها	**فتمردت بعـــد (الممـــات)**
امســت جراثـيم المــلاريا	**من ســــرور (ظاهـــرات)**
وتفـــرق التيفـــوس والـ	**تيفود فى كل الجهــــــات**
وتالب المكــــــروب والـ	**ـــبكتريا بعـــد الشتات**
وبكت قـــوارير الصيادل	**بالدمـــوع الســـــائلات**

فهذه ابيات ليس لنـــا من فضل فيها سوى فضل التقليـــد للشاعر المجيد . ومن لم يعجبه تقليدنا فليل لنا فيم أخطأنا المحاكاة وخالفنا الاحتذاء ونددنا عن القياس ولكأننا بصاحب « الامتيـاز » الأصلى يعض بنانه ندما على فوات هذه التتمة الصالحة فأنه ليس أغص للنفس من فرصة يلوح لها تأتيها بعد معالجتها واليأس منها .

كذلك يؤبنون يامن خلقتهم فكيف تراهم يتهكمون ؟؟ وأما والله لو توخى هذا الذى شمر لتأبين عثمان غالب أن يمازح الرجل بكلام يعــرض له فيه بعمله وصـــناعته مسترســلا فى الدعابة مستهترا بالمجون متبسطا فى الفكاهة لما استطاع ان يضرب على أوقع من هذه

النغمة . فليت شعرى بأى ذوق مزج بين هذين الشعورين المتباعدين تباعد القطبين ؟؟ أبذوق الشاعر المفطور الذى يفرق بين شبهات السرائر وهجسات الضمائر ، والذى لا تدق عنه أخفت همسات العواطف ولا تلتبس عليه أخفى ألوانها ؟؟ يقولون أن اذن الموسيقى المطبوع تميز بين ثلاثة آلاف نبرة مختلفة ولو قلنا أن فطرة الشاعر ينبغى أن تميز بين ثلاثة آلاف خطرة من خطرات الاحساس المتوشجة المتنوعة لما أخطأنا فما ظنك بأمير شعراء لا يميز بين احساسين اثنين ضخمين لا يشتبهان ولا يتقابلان ولا يجتمعان — أحدهما لا تحسه النفس الا فى أبهج ساعات الحياة : ساعة التبسط والانشراح ، والثانى انما يخامرها فى أقدس مواقف الموت وأجلها : موقف تمجيد العظيم الراحل والعظة بسيرته .. !! الا هكذا فليمت الاحساس النبيل الصادق والا فلا موت بل نحن فى دار الخلود .

مه ! مه ! أن من السخف لما تعافه الجبلة وتتقزز منه النفس تقززها من الشناعات الجسدية . وهذا السخف الذى تمنونا بلادة الاغبياء بالتحرك لانتقاده أشنع هذا النوع وأقذره لانه كالورم الذى يخيل الى الغر من احمراره ولمعانه أنه ماء الحسن ورونق الصبا فيهوى اليه يقبله ويرمقه ، وحسب الطبع تقززا أن يرى الدمامل مقبلة مرموقة .

ومن نظر الى عشرة ممسوخين فى بقعة واحدة فاشمأزت نفسه من رؤية عاهاتهم ومقاذرهم خليق أن يدرك اشمئزازنا حين ننظر فنرى حولنا العشرات والمئات من ذوى العاهات النفسية البارزة يستحسنون مثل هذا الشعر على غثاثته وعواره بل هو لا يروقهم الا لما فيه من غثاثة وعوار — خلائق كل ما نستطيع أن نعلل به هذا الاعوجاج فى طبائعها وأذواقها انها تلفت لفرط ما أخلدت الى الكسل والضعة وتلوثت لحقارة المشاغل التى بقى لها أن تعنى بها وتكترث لها ونغلت لشدة ما توالى عليها من عنت الدهر وذل الحوادث والحاح الاحساس الدائم بالضعف والجبن حتى أعقبها هذا البلاء اللازب شر ما تمنى به نفس بشرية : أعقبها العجز عن احتمال الجد والتمادى

فى الهزل واللجاج فى السلوى الكاذبة حتى صارت المغالطة والالتواء والهرب من الحقائق ديدنا لها بل كادت تكون خلقا ثابتا فيها . وساء فهمهم للذوق السليم فاصبح جهد الذوق فى زعمهم التصنع والاسترخاء وتخنث الترف المؤنث . وما كان اللين والترطب قط عنوانا على ارتقاء الذوق الانسانى وحسن استعداده وانما هما نقيض هذا الذوق واقرب الى الوحشية منهما الى الانسانية — الا ترى الى الرومان كيف كانوا يتلهون بتعذيب الآدميين : يطرحونهم للسباع الجائعة تمزق لحومهم وتنهش احشاءهم وتقضم عظامهم وتلغ فى دمائهم وهم يسمعون أنينهم ويتلذذون بأوجاعهم كانهم تلك السباع الضارية تتلذذ بما تأكل وما تشرب ! ! فاذا تذكرت ذلك فاذكر كيف كان الرومان فى ذلك العهد !! كانوا فى عهدهم الذى بلغوا فيه من الترف ونعومة الاخلاق مالم يروه الراوون عن أمة قبلهم ولا بعدهم .

(وبعد) فكأنما فرغ صاحبنا من التدليل على فساد الذوق فانتقل الى عيب آخر من عيوبه يوفيه قسطه من الدلائل والعلامات الا وهو الاحالة وعقم الفكر . بيد أنه توفق هذه المرة الى اثبات هذا العيب بفرد بيت فقال :

عثمان قم تر آية
لله احيا الموميات

يأمر الشاعر المرثى أن يقوم من الموت . ولماذا ؟؟ ليرى آية . . . فيحسب السامع أن الآية التى سيراها الدفين بعد بعثه اعجب واخرق لنواميس الكون من رد الميت الى الحياة ، ولكنه لا يتم البيت حتى يعلم أن الاعجوبة التى يبعث الدفين من قبره ليعجب منها هى النظر الى ميت يبعث . . . فهل سمعتم فى العى والاحالة ما هو أحمق من هذا اللغط الفارغ الخاوى ؟؟ أليس هذا كايقاظ النائم « ليتفرج » على نائم يتيقظ وكحمل المقعد الى أوروبا أو أمريكا ليمتع الطرف بالنظر الى مقعد يعرض فى المسارح للمتعجبين ؟؟ وعلى

ان بعث العلامة المدرج فى أكفانه اغرب واشـد استحـالة من بعث الموميات التى يعنيهـا شوقى لان موت الأمم مجازى لا تستغرب الرجعة منه وموت الافراد حقيقى لا رجعة منه فى هذه الدنيا . وعدا هذا فان كان القصد من بعث الأسـتاذ غالب أن يرى « الموميـات » تحيا فقد شهد الرجل هذه المعجزة وحضر عهدها قبل موته بأشهر فلا حاجة الى قلب نظام الكون وازعاجه فى ضريحه ، لا لشىء الا أن يرى المعجزة التى قد رآها ... وبعـد فليـذكر شوقى أن الذين يدعوهم بالموميات هم أولئك الذين نفق بينهم شعره ونفذت فيهم دسائسه وجاز عليهم احتياله على الشهرة ، فان كان هو شـاعرا لأحد فهو شاعر الموميات ، وان كان لشهرته حـد فهو اليوم الذى يقال فيه عن تلك الموميات .

خـرجت بنين من الـثرى
وتحـركت منـه بنـات

ثم ما هذا الولع من شاعر « الموميات » باقامة الأموات !! فهو ينادى عثمان « قم تر آيـة » ويصيح بسليمان « قم بسـاط الريح قام » ويهتف بالأستاذ الامام شأمتـا « قم اليوم فسر للورى آية الموت » ويقول للشـهيد فريد « قم ان اسطعت فى سريرك » وغير ذلك مما لا نحصره ولا نود أن نحصره .. أفلم يكفه قيام الأحياء حتى يقوم له كل من فى التراب !!!

ولم ينس شـوقى براعة المقطع فختم القصـيدة بأليق بيتين يتممان ما فيهـا من خطل الادراك وضـلال الحس ، وهذان بيتـا الختـام .

الفـكر جـاء رسـوله
فاتى باحـدى المعجـزات
عيسى الشـعور اذا مشى
رد الشعوب الى الحيـاة

ففى كل مختصر من عجالات علم النفس يكاد يبدأ المؤلف بالفرق بين الفكر والشعور ، ويكاد يضع كلا منهما بالموضع المقابل للآخر . وقد الم العامة بداهة بهذه الحقيقة فتسمع منهم من يقول أحيانا . « ليست هذه مسألة عقل . هذه مسألة احساس » أو ما فى معنى ذلك . ولكن شاعر العامة لا يفطن الى هـذا الفرق فيجعل الفـكر والشعور شيئا واحدا ثم يعكس الآية فيقول ان الشعور يرد الحياة وكلنا يعلم أن الحيـاة هى التى تنشىء الشـعور ولا بدع فان من لا يفكر الا سهوا ولا يشعر الا لهوا ولا يمارس أسرار الحياة وقضاياها الغامضة الا عفوا لحرى أن يجهل الفرق بين التفكير والاحساس كما جهل الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية .

استقبال أعضاء الوفد

قصيدة أوجز ما توصف به انها نكسة ادبرت بقائلها ثمانية قرون وكان فيها مقلدا للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه .

مثل لنفسك أيها القارىء شاعرا من شعراء الغرب هبط مصر مستطلعا اول عهده بها وبنهضتها الحديثة ، فذهب يرود أكنافها ويتحرى عجائبها ويستكنه اخلاقها وشمائل نفوسها من آدابها وفنونها ، الى أن سيق اليه ضنيعة من صنائع شوقى فأسمعه أن ها هنا شاعر يدعونه أمير الشعراء ، ثم جعل لا يذكر له من الألقاب الا لقبا مزدوجا ، فهو اما شاعر الشرق والغرب أو شاعر الأرض والسماء أو شاعر الانس والجن أو شاعر الأقدمين والمحدثين أو شاعر الدولتين والعهدين والقرنين — الى أشباه هذه الالقاب ، هذا والرجل يستمع ويعجب أن يتفق ذلك لأحد كائنا من كان فى العالمين : وقد تعلم أيها القارىء أن أذكياء الغربيين وخاصتهم لا يألفون الاطناب والتهويل ، وانهم يقدرون اعجابهم ويزنون كلماتهم فهم يستكثرون على شاعر كشكسبير أن يدعى شاعر الأقدمين والمحدثين عندهم بله الانس والجن والأرض والسماء ، وان كان لاحق من يدعى كذلك ، ويكبرون أن يلقب دانتى أو هوجو أو جيتى بشاعر أوربا وان كان لكلهم من شيوع صيته وقدم أيامه وكثرة المعجبين به وتداول طبعات كتبه — مسوغ لهذا اللقب . فلابد أن يلمح الشاعر الغربى فى تلك الصفات التى سمعها مغالاة وشططا . بيد انه يجب

ان يرى كيف يكون التعبير عن النفس المصرية وان يعرف المعانى والمثل العليا والخيالات التى اذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وان يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى ، فيرجو محدثه أن يترجم له قصيدة حديثة من شعر شاعره ، وتكون هى قصيدته فى استقبال اعضاء الوفد .

يبدأ صاحبنا معجبا فيقول : « تحول بقلبك عن الطريق وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل ومن جماعه الظباء .. » وهو ترجمة قول شوقى :

اثن عنـان القلب واسـلم به
من ربرب الرمـل ومن سربه

فيصفح الرجل عن التكرار ظانا أنه من مقتضيات التنبيه والتحذير كما يقال « النار ! النار » و « الحصان ! الحصان » الا انه يتوهم ان فصائل الظباء والايائل والوعول تفتك بالناس وتخيفهم فى هذا الجانب من الأرض فيتقونها ويهربون منها لضرواتها وعرامها . ويود لو يرى هذه الأوابد الافريقية فما هو الا أن يسأل صاحبه فى ذلك فاذا الجواب حاضر يلقى اليه بابتسامة الأستاذ لتلميذه الجهول : « كلا : كلا : ليس فى بلادنا ظباء مخيفة ولا اليفة — ما الى هذا قصد شاعرنا ، وانما هو يعنى النساء » .

نساء وما شأن النساء بهذا الحيوان ؟؟ يسأل الرجل مستغربا فلا تتغير ابتسامة صاحبه المترجم ويجيبه : « نعم نساء . فاننا نشبه المرأة بالظبية اقتداء بالعرب ، فقد كانت تعجبهم عين الظبية الكحلاء فكانوا يشبهون بها عيون النساء ومن ثم صارت المرأة ظبية » .

نقول : ولا يبعد أن يرتضى الشاعر الغربى هذا التشبيه على

أنه منقول عن العرب وربما قال بشيء من التهكم : « حسن تشبيهكم هذا ، ولكنى لا أدرى لم ينقل شاعركم رمال الصحراء مع العيون الكحلاء ، ولم تكون شوارع مصر تلولا ان كان لابد أن تكون حسانها ظباء ووعولا ؟؟ » ثم يغمغم كأنما يخاطب نفسه : « اذن فصاحبكم عاشق يتغنى ! »

وما اشد ما تكون دهشته اذ يقول له محدثه وقد زم شفتيه ومد عنقه كمن لا يرى داعيا لذاك الافتراض : « ولماذا ؟؟ ان الشاعر ليتغزل على سنة مرسومة سنة وضعها الفحول من الشعراء الأقدمين » .

فيفاجأ الرجل ويجد انه قد أحال غير قليل على تباين الأمزجة والمذاهب بين الشرق والغرب ، فهل يطلب منه أيضا ان يحيل التقليد فى الغزل على اختلاف الخلقة وتفاوت التركيب ؟؟ ولئن صح ما ترجم له ولم يداخله شك فى نهضة الأمة ليكونن اذن بين فرضين اثنين ليس واحد منهما بجائز فى العقول : فأما ان الشرقيين ركبت قلوبهم وأشرجت شهواتهم بحيث اذا أحب السلف العربى اتى الخلف المصرى متغزلا بعد عدة قرون ... وهو مستحيل . وأما ان هؤلاء الشرقيين يعيشون فى ابان نهضاتهم الاجتماعية بقلبين فينهض أحدهما ويحيا ويموت الآخر حتى ما يحس أقوى خوالج النفس وأعنفها وهى غريزة العشق الجنسى . وما خلق الله لامرىء من قلبين فى جوف واحد .

على انه يجنح الى حسن الظن ويخيل اليه انه أخذ يفهم بعض الفهم ويقول لمترجمه : « أخالنى قد فهمت . فلعل شاعركم وضع القصيدة على سبيل المحاكاة المقصودة كما يصنع بعض شعرائنا » فلا يفهم المترجم مراده ، فيقول له مفسرا : « ان الغربيين كما يتسلون أحيانا بلبس ملابس الرومان واليونان الاقدمين أو يتزيون بزى الفرس والهنود ، كذلك يخطر للشعراء عندهم ان يتسلوا

باحتذاء أسلوب الشعراء من الأمم النـازحة والأجيال الغـابرة .
رياضة وتفكها لا جدا والتزاما . وهذا الاحتذاء عندهم لا يعد من
جيد المقاصد ولا من جوهر الشعر وغاية ما فيه انه رياضة مقبولة» .

فيفغر المسكين فاه تحيرا ممـا يدخل على ذهنـه من كلمات
يحسبها اخانجى والفازا . ويظن انه يذب عن شاعره المزدوج الألقاب
حين يسرع فيبرئه من تعمد التقليد والهزل فيخبر الشاعر الغريب
بالغرض من نظم القصيدة وان قائلها لم ينظمها محاكيا ولا مستريضا
وانما نظمها فى مستقبل أمة ناهضة .. وتحية لزعمائها ..

الى هنا ينتهى العجب باليقين ـ فان كان الرجل قد ارتضى
التقليد فى التشبيه والغزل واغتفر نقض المدينة العامرة يبابا وقلب
الشوارع الممهدة هضابا ، فمن وراء عقله ان يرتضى استهلال الكلام
فى نهضات الأمم بالغزل صادقا كان أو مستعارا ، وأن يفهم الابتداء
بوصف محاسن النسـاء واطراء العيون الكحلاء ، تمهيدا للثناء على
مآثر العظماء ومناقب الزعماء ، وأن يئن ويتوجع ، فى حيث يفخر
ويترفع ، وأن يوائم بين موقف الوجد والصبابة ، وموقف النصح
والاهابة ، فذلك ما لا يقبله تفكيره ولا يذهب اليه تخمينه ، وأن
أعوزته دلائل الحكم على منحى أفكارنا وقيمة آدابنا ومدارج نفوسنا
فكفى بما سمع برهانا يحكم به كيفما شاء ولا يتحرج ان يظلم أو
يتجانف ، ثم لا يكون بعد ذلك الا معذورا .

* * *

ونحن لم نمثل فى الحديث المتقدم بشاعر غربى لأن فهم هـذه
البسائط وقف على الغربيين ولكن ليسهل على الذين تغيب عنهم
بساطتها أن يفهموا على اى وجه تلوح غثاثات التقليد لمن خلصت
عقولهم من سلطان تكرارها وجريانها مجرى القـواعد المصطلح
عليها . والا فأى انسان تجرد من الانخداع بالتكرار وخلع ربقـة

التقليد لا يشعر لأول وهلة بالخلط الشائن فى هـذا الضرب من الشعر ؟؟ ما الشعر الا كلام فان كانت له ميزة على الكلام المبتذل فميزته أنه اجمل وأبلغ واحسن وضعا للمعانى فى مناسباتها . فهل يتكلم الرجل فى السوق والبيت فيتحرز من الخلط بين تصنع الوجد والهيام وتقدير الحوادث الجسام ، حتى اذا تهيأ للشعر لم يخجل أن يخلط فى قصيدة واحدة بين أبعد موضوعين عن الانتظام فى نسق واحد ؟؟ فلو انه كان صادقا فى عشـقه لقبح منه ذلك بين ندمائه وسجرائه ، دع عنك قبح اذاعته بين الملأ ، فكيف به وهو متصنع لا يعشق بغير اللسان !!

* * *

لقد كان الرجل من الجاهلية يقضى حياته على سفر : لا يقيم الا على نية الرحيل ولا يزال العمر بين تخييم وتحميل . بين نوًى تهيج ذكراه ، ومعاهد صبوة تذكى هواه ، هجيراه كلما راح او غدا حبيبه يحن الى لقائها أو صاحبة يترنم بموقف وداعها . فاذا راح ينظم الشعر فى الأغراض التى من اجلها يتابع النوى ويحتمل المشقة ثم تقدم بين يدى ذلك بالنسيب والتشبيب فقد جرى لسانه بعفو السليقة لا خلط فيه ولا بهتان .

ولما تعود شعراء العرب التكسب بشعرهم صاروا يخرجون من جوف الصحراء الى ملوك الحيرة وغسان وفارس وينتجعون الأمراء والأجواد فى أقاصى بقـاع الجزيرة يحملون اليهم المدائح يبدأونها احيانا بوصف ما تجشموه فى سبيل الممدوح من فراق الأحبة وألم الشوق وطول الشقة وأحيانا كانوا يصفون الناقة ألتى تقلهم وخفة سيرها وصبرها على الظمأ والطـوى ومواصلتها الليـل بالنهار سعيا الى الممدوح كنـاية عن الشوق الى لقـائه ، وكان الغرض فى الحالتين واحدا وهو تعظيم شانه وتكبير الأمل فى مثوبته، فكان الابتـداء بالغزل ووصف المطى فى قصـائد نظمت فى المديح

وما شاكله من اغراض حياتهم المتشـابهة لا يعـد من باب اللغو والتقليد .

ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . ومن عادة الصانع أن يحتاج الى النموذج والأستاذ فأقاموا المتقدمين اساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها ، وكان شعراء البادية لا يزالون يفدون على الامصار فينهجون نهج اسلافهم مطبوعين أو مقتـدين فكان يختلط المطبوع بالمصنوع فى هذا العهد ويتقاربان حتى لا ينتبه الادباء الى الفرق بينهما . ومن شعراء الحضر من تقدم تقدما حسـنا فنعى على المتقدمين بكاء الدمن والطلول وافرد كثيرا من الغزل فى قصائد قائمة بذاتها واشهر هؤلاء أبو نواس . ومنهم من كان يفتتح مدائحه بالنسيب ويتجنب ذلك فى العظائم كما صنع أبو تمام فى بائيته المشهورة التى مدح بها المعتصم بعد فتح عمورية . وفى رائيته التى أولها .

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار

وكما صنع المتنبى حين مدح سيف الدولة وذكر نهوضه الى الروم فقال مفتتحا :

ذى المعالى فليعلون من تعالى هـكذا هـكذا والا فـلا لا
حال اعدائنا عظيم وسيف الد ولة ابن السيوف اعظم حالا

ومضى فيها كلها على هذا النمط . وكذلك حين مدحه عنـد انصرافه من أرض الروم فاستهل قصيدته بالبيت السيار :

الراى قبل شجاعة الشجعان هو اول وهى المحل الثانى

وكما صنع الشريف واضرابه فى كثير من قصائد المدح والفخر على اختلاف مناسباتها . ولكن فسدت السلائق وجمدت القرائح وقل الابتكار أو انعدم ونشأ من شـعراء الحضر جيل كان أحدهم

يقصد الأمير فى المدينة وانه لعلى خطوات من داره فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكر من الفلوات التى اجتازها والمطايا التى انضاها وحقوق الصبابة التى قضاها . وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله فى مطلع كل قصيدة حتى فى الكوارث المدلهمة والجوائح الطامة . هؤلاء هم المقلدون الجامدون . والآن وقد بادت الطلول والقصور ونسخت آية المديح بمطالعه ومقاطعه وتفتحت للقول ابواب لم تخطر لأحد من المتقدمين على بال .. ، يجىء شوقى فيتماجن ويتصابى فى مطلع قصيدة يتنظر بها مستقبل امة ويقول فيها :

قد صارت الحال الى جدها وانتبه الغافل من لعبه

ويجىء اناس ممن طمس الله على بصائرهم فيقولون عن هذا المقلد للمقلدين الجامدين انه مجدد وانه عصرى بل انه شاعر العصر .

وهل تعلم ما الغزل الذى استحل لاجله اتيان هذه المجانة والعبث ؟؟ فقد يكون له عذر الاجادة لو كان مبتدعا فيه أقل ابتداع وان حق عليه اللوم لوضعه فى غير موضعه ــ ولكنه هو الغزل الرث الذى ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعه منذ عشرة قرون . فأى سوقة من صماليك الوزانين لم يغسل رجليه فى وعاء هذه المعانى التى نضح بها شعر أمير الشعراء ؟؟ وقد يطول بنا الجهد لو فتشنا عن واحد من مقطعى العروض لم يقل فى وصفه : « قد يتثنى كالبانة » « أرداف مرتجه كالكثبان اى كاكوام الرمل » « خد كالورد » . « حسان كالأقمار أو كالنجوم » . «مشية كمشية القطا » . « عينان لهما سحر هاروت وماروت » « ظبية الرمل » الى بقية تلك الكناسة الشعرية المنبوذة . وهذه هى روح العصر فيما يحدسون !!

ثم يتخلص شاعرنا من مقدمته الى موضوعه . فأما الموضوع فلا نقول فيه سوى انه مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها

الصحف يومئذ لولا انها متناقضة متدابرة وانها خلو من الاسباب والحجج التي بنى عليها الكاتبون رايهم واما الكلام الشعرى فيه ففى بيت القصيد او بيتيه وهما :

قطارهم كالقطر هز الثرى   وزاده خصبا على خصبه

لولا استلام الخلق ارسانه   شب فنال الشمس منعجبه

وانه لأليق تحية استقبال تتلو ذلك الافتتاح ، ولو كان للشاعر فضل فى التناسب المحكم بينهما لكان اشعر الشعراء ولكن (مكره اخوك لابطل) .

ولا اسهب فى التعليق على البيتين ولكنى أروى مشاهدة يتبين منها القارىء مبلغ ما يفعله التقليد من تعطيل المدارك والحواس ، وأن فى الأطفال اللاعبين خيالا أفطن وتمييزا أصفى من شاعر يعكف على القديم وتشوب نفسه الصنعة المتكلفة .

بين اشرطة الصور المتحركة ولا سيما الأمريكية منها مناظر خاصة لاطراب الصغار وجلب المسرة الى قلوبهم . ومن اشدها غرابة المطاردات الجامحة التى تجرى فيها خوارق العادات فتتحرك الدور والجواسق وتتطاير الكراسى والأوانى . وهى كثيرة لا اظن زائرا من زوار الصور المتحركة لم ير واحدا منها ــ حضرت منظرا من هذه المناظرة فأخذت المطاردة مأخذها المألوف : هارب يعدو ومقتف يتعقبه . واستمر الكر والفر والهجوم والمراوغة الى ان وثب الهارب فى منطاد ، وكان المطارد يعدو خلفه فى سيارة فوثبت به السيارة وراء المنطاد . عند ذلك لم يبق فى الملعب طفل لم يستفزه العجب فيثب ضاحكا . وما أخالهم الا كانوا مصدقين ما يرونه وانما ضحكوا لأن المنظر مضحك على كل حال ... فليت شاعرنا الكبير الذى قرع أبواب الخيال نيفا وثلاثين سنة حضر يومئذ فسمع ضحك الأطفال من سيارة تطير فيعلم أن طيران القطار بقاطرته

ومركباته فى الهواء مسخرة لا مفخرة . ولو استطاع خياله الكليل أن يتبع الصور الذهنية خطوة فيرى الطار شابا فوق الرؤس فى طريقه الى الشمس ويرى الناس آخذين بحجزاته وارساته يمنعونه ويكبحونه ـ لغلب حذره من الاستهزاء على ولعه بالاغراب ، والأمر بعد لا يتطلب خيال شاعر فانه من مدركات العامة السذج ولولا انهم يدركون الجانب المضحك من هذه التصورات لما شاعب بينهم رقية كهذه الرقية الهزلية : « الحمد لله الذى لم يخلق للجمال أجنحة فكانت تطير فوق بيوتكم الخ الخ » .

أما ان القطار كالمطر يزيد الثرى خصبا على خصبه فتشبيه لا أصل له . ولو أمكن أن يشبه القطار بالمطر بأى قرينة من القرائن أو جامعة من الجـوامع لكان التلف منه على أرض مصر أكبر من المنفعة . على انه ليس من المطر ولا المطر منه ولا نسبة بين القطار والقطر غير التجانس فى الحروف . وهكذا تتعلق أشعار المقلدين بالحروف والألفاظ لا بالحقائق والمعانى . وشوقى كما قلنا فى أول المقال مقلد المقلدين .

النشيد

ربما كنا فى غنى عن نقد هذا النشيد اذ كنا لم نلق أحدا يتقبله ويحله المنزلة التى أحلته فيها لجنة الأغانى والألحان . فان المنا به الماما فى طريقنا فقد يكون لذلك فائدة وهى توقيف بعض القراء على قيمة احكام اللجان ، وانها فى أكثر الأحيـان تبع متبع ، لا يرفع ولا يضع . ونحن حديثو عهد بلجان الفنون والأدب فى مصر فقـد يجهل سواد الناس حقيقتها . أما فى أوربا فربما بلغ من تهـاون الأدباء بشأنها أن يطبع أحدهم رسالته أو قصيدته ويثبت عليهـا بالخط العريض « لم تجزها جامعـة كذا » كما صـنعوا برسالة شوبنهور التى كتبهـا فى الأخلاق وقدمهـا الى جامعة كوبنهاجن ففضلت عليها غيرها فكانت سقطة الأبد .

تصدت لجنة الأغانى للحكم فى اناشيد الشعراء وأولت نفسها هذه الكفاءة ــ وانها لكفاءة تتطلب الاحاطة بأشياء جمة قل بين اعضاء اللجنة من يعد ثقة فى واحد منهـا . فمن شروط الحكم فى الأناشيد القومية أن يكون عارفا بالشعر ، خبيرا بتوقيع الألحـان على المعانى ، مطلعا على أناشيد الأمم ، بصيرا بأخلاق الجمـاعات وأطوارها النفسية ، هذا الى استقلال الرأى والعـدل والجهل بأسماء من يحتكمون اليه . فهل بين أعضـاء اللجنة كثير ممن تتوافر فيهم هذه الشروط ؟؟ اننا نعرف من بين اعضائها اناسا نجل ذكاءهم ونكبر فضلهم فى علومهم ونراهم أهلا للحكم فى أعضل المشكلات التى

تفرغوا لدرسها . بيد ان التفوق فى شىء لا يفيد التفوق فى كل شىء. واذا علمت أن الرجل من الاخصائيين يقضى العمر فى فنه باحثا منقبا ثم تعرض له المسالة فيصيب ويخطىء ويبرم اليوم ما نقض أمس ، فاحر بك أن تعلم مبلغ اعتصامه من الخطأ فيما يتفرغ له ولم يدع الحذق به . ونحن نذكر هنا حقائق عن اللجنة لا سبيل الى انكارها وندع للعارفين بعد ذلك أن يحكموا على حكمها .

فمن هذه الحقائق ان بعض أعضاء اللجنة عرفوا فى الجلسة وقبلها نشيد شوقى المقدم اليهم غفلا من الامضاء ، ولا ندرى لم تكلفوا اغفال اسمه ورأوا ذلك شرطا ضروريا لنزاهة الحكم ثم سمحوا لأحدهم (الأستاذ عبد الحميد مصطفى بك) أن يجهر فى الجلسة باسم صاحب النشيد بعد أن تبين الميل من أكثر الأعضاء الى رفضه ؟؟ بل لا ندرى لما ارجأت اللجنة اجتماعها موعدا بعد موعد وتمهلت حتى يتم شوقى نشيده وبين يدها نيف وخمسون نشيدا؟؟ أمن العار على الأمة أن يكون فيها رجل آخر يحسن أن يضع انشودة واحدة ؟؟ ولقد كان النشيد على أفواه الممثلين فى احدى الفرق يلحنونه ويروضون انفسهم على القائه ، واللجنة تطبع الأوراق وترسل الدعوات وتستقدم أعضاءها للنظر فى اناشيد مجهولة ، واسرار مكتومة ؟؟ فهل سعى النشيد وحده الى دار التمثيل ؟؟

ومما نذكره أن اللجنة لفرط برها بشوقى وحرصها على اختيار نشيده قبلته على ما فيه من مآخذ وعيوب ، نبه اليها بعض الفضلاء ، وردته الى صاحبه ليجتهد فى اصلاحه قبل اذاعته من قبلها . وذلك أن عضوا عاب قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعـــز ركن
اليس لكم بوادى النيل عدن ؟؟ الـخ الـخ

وقال ان البيت الثانى منبتر ، وسأل : ما العلاقة بين النصح

ببناء الملك على الأخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والنيل بالكوثر ؟؟ فوافقوه على انتقاده . وانكر بعضهم تأليف البيتين الآتيين ومعناهما:

جعلنا مصر ملة ذى الجلال　　والفنا الصليب على الهلال

واقبلنــا كصف من عوال　　يشــد السمهرى السمهريا

فانتقدوا قوله « ملة ذى الجلال » ونقل الى أن أحدهم قال : اننا نجعل مصر وطنا يشترك فى حبه ابناؤه ، واما ملة ذى الجلال فهى الملة التى يدين بها كل انسان بينه وبين ربه « ذى الجلال » وهو انتقاد سديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟؟.انما يقال اتحدوا فى الوطن واتركوا الدين للديان ، ولا يقال اجعلوا الوطن ملة الديان . ولم يستحسنوا قوله « الفنا على الهلال » ولا ذكره السمهرى ، وقال آخر ان عبارة « كصف من عوال » افرنجية التركيب ، ونحن نروى الانتقاد ولا نحمل تبعتــه . ويظهر أن النــاظم لم يفتح عليه بتغيير اللفظ مع المحافظة على المعنى فأصلح بيتا واحدا وترك البقية على حالها . أصلح هذا البيت .

نموت اليك مصر كما حيينا　　ويبقى وجهك المفدى حيــا

وكانوا قد اخذوا عليه قوله « نموت اليك » لأنها لم تسمع فى كلام صحيح فلم يستطع اصــلاحها بأحسن من أن يقول « نموت رضاك مصر الخ » ــ وقد نشر كذلك فى صحيفة الأخبــار ــ فلم يقتنعوا . فجعلها اديب فى النسخ الاخيرة «نموت فداك» فاقتنعوا !!

ونذكر ايضا انه كان بين المحكمين اعضاء من المغنين والعوادين جيء بهم ليحكموا فى اى الاناشيد أصلح للفخر القومى واشد اعتلاجا فى النفس وابتعاثا للحمية ومطابقة لنفسية الأمة !! وليديروه فى اللحن الذى يثبت القلوب الخائرة وينهض بالهمم العائرة ويسمعه

الوانى فتضطرم نفسه عزما ، واليائس فيهجم الى الأمل قدما ، والعدو فيتضعضع قلبه رعبا وغما .. وليكون اللحن صوت الامة فى سمع التاريخ ونحوها فى المواقف والازمات فانظر أين ذهبوا بهؤلاء المظلومين هل تعلم بين من نسمعهم من مغنينا من ينطق بلسان النفس يائسة وراجية ، وغاضبة وراضية ، ومستنفرة ومتهللة ، وصارخة ومبتهلة ؟؟ وهل فيهم من يروى بأنغامه عن جلال الحياة وجمالها وعن عظمة الكون وبهجته كما ينبغى ان تكون الموسيقى ؟؟ لقد علم كل انسان ان ليس فيهم من يفهم الموسيقى على هذا المعنى ولكنها اصوات الذل والضراعة والحان ينشدها النائم فلا يستيقظ ويسمعها الصاحى فينام .

ثم نذكر تبرع شوقى بالجائزة لنادى الموسيقى . وكان هذا وعده المعروف ولو انه لم يعد لما دار بخلد احدهم انه على غناه يطمع فى مائة جنيه يحتجنها لنفسه فكان يهم الأعضاء ان يفوز هو بالجائزة الموعودة ، وجلهم من اعضاء نادى الموسيقى ، والنادى بحاجة الى اعانة المتبرعين .

ولا ننس أن اللجنة حكمت المويلحى ، وهو رجل تصل اليه هدايا شوقى . على انه تخلف عن الحضور فاضطروه الى ارسال رايه اضطرارا . وحكمت حافظا وقد عرف اصحابه انه يتقى أن يرمى بالحسد ان أومأ بالنقد الى قرينه . ومن غرائبه انه كان ينحى على النشيد فى الجلسة وقبل اجتماع الاعضاء فلما اعلن الأستاذ عبد الحميد بك اسم شوقى سكت .

وعلمنا غير ما تقدم امورا لا نحب ذكرها . وفيما ذكرناه دليل على هوى اللجنة فى جملتها . فلنعد الى النشيد غير آبهين للحكم له أو عليه ، وليكن قياسنا اياه ان نلتمس فيه ابسط الخصال التى هى قوام كل نشيد ولا يجوز أن تخلو منها الاناشيد القومية .

يشترط فى النشيد القومى قوة العبارة وسهولتها وان لا يكون

وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب وموافقا لكل زمان . وهذا ابسط ما يطلب فى اناشيد الأمم . فهل نشيد شوقي على هذا الوجه ، وهل اتسقت فيه كل هذه الشروط أو بعضها ؟؟

فأما قوة العبارة فليس فى النشيد بيت يدب له الدم فى عروق منشده . وكل مفاخره افرغت فى قالب هو اقرب الى الأخبار منه الى الحماسة . واقواها قوله ا

لنا الهرم الذى صحب الزمانا — ومن حدثانه اخذ الأمانا
ونحن بنو السنا العالى نماما — اوائل علموا الأمم الرقيا

وليس فى هذين البيتين من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس ، وليس فيهما قوة لا تجد مثلها فى قول من يقول « كلن لى بيت سعته كذا من الأذرع . بابه على النيل ، وضوء الشمس يغشاه من جميع النوافذ ، الى آخر أوصاف المساحة .. » فأى فرق بين قص المعلومات والحماسة اذن ؟؟

وأما سهولة العبارة فقد خلا النشيد من الكلمات المعجمة ولكنه لم عن اعنات المقيد المجهود فخففت فيه ثلاث همزات تخفيفا معيبا واستعصي الوزن ووالقافية على صاحبنا حتى صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » « تهيا » و « شيئا » شيا : نعوذ بالله من الشى .

وأما وضعه على لسان الشعب فهذا مطلعه :

بنى مصر مكانكم تهيا — فيها مهدوا الملك هيا
خذوا شمس النهار له حليا — الم تك تاج اولكم مليا
على الأخلاق خطوا الملك وابنوا — فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن — وكوثرها الذى يجرى شهيا

فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة ؟؟ أ اجنبى يخاطبهم وينشد نشيدهم ؟؟

ولقد استوطأ شوقى مطية الفلسفة والمواعظ بعد أن ركب حمارها ببيت واحد سوقى المعنى وهو قوله :

وانما الأمم الأخـلاق ما بقيت   فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فراح يجرى علية ذهابا وايابا فى كل مكان ومقصد . حتى طلع لنا بأذنى حماره الفلسفى هـذا فى موعظته « على الأخلاق خطوا الملك » ولم يجد على البـاب من يقول له : يمينك أو شمالك .. فكأنما كان شوقى على رهان أن يخالف قواعد الأناشيد ما أمكنه ، وكأنما لهذا أحرز السبق لا لأن نشيده كان كما وصـفته اللجنة « اكفاها واوفاها بالغرض واجمعها للمزايا التى ينبغى ان تتسق لنشيد قومى مصرى » فانه لو وضعت الجائزة لمن يجرد نشيده من كل شرط يتسق للأناشيد لما عرفنا كيف كان يسبق فى هذا المضمار .

وفى المقطوعة الأولى خطأ تاريخى ما أظرفه فى نشيد امة تفتخر بتاريخها القديم فان الشمس لم تكن تاج الفراعنة كما يقول شاعر مصر وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون انهم من سلالتها . وأما تاج الفراعنة الأول فهو تاج مزدوج جمعوا فيه بين تاج ملوك الصعيد وتاج ملوك الوجه البحرى ويعرف شكله كل طالب من طلاب السنة الأولى فى المدارس الثـانوية   ثم حدثت بعد ذلك تيجـان كانوا يحلونها بصور الطيور المعبودة أو التى يرمز بها الى العبادات ولم تكن الشمس قط حيلة لهذه التيجان .. فياحبذا النشيد تتغنى به أمة فيكون مطلعه عنوانا على جلهلها بتاريخها .

ولا يكلفنا القارىء أن نأخذ على شوقى مبالغته فى قوله : « خذوا شمس النهار له حليا » فاننا لا نحاسبه على كلمة له فيهـا وجه تأويل .

وأما الموافقة لكل زمان فاننا نرى الرجل قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدأبنا فى يومنا هذا ، فنظم لنا نشيدا لا تتخطى به فى جميع العصور أن يتهيأ مكاننا . وان لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ

فى الاستعداد وتبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الأركان ، وما علمنا شاعرا قوميا يطلب اليه أن يكون فأل الأمة وهاتف مستقبلها فينعب فيها نعيب النحس وينذرها جمودا لا تتزحزح منه أو تنسى نعيبه ، وتهجر الترنم به . ولقد عرف القراء جهل شوقى بالمواقف من قصائده الآنفة ، واجهل ما يكون هو اذا وقف موقفا وطنيا أو قوميا . فمن دلائل غفلة الذهن وعتسا البصيرة أن يكلف « ابن بجدتها » انشاء دعاء قومى ، أى دعاء لا يعوقك دين من الأديان أن ترتله فى البيعة أو تشدو به فى الكنيسة أو تصلى به فى المسجد ، فيخيل اليه انه اذا جمع فروق الأديان كلها فى جملة واحدة فقد اتيح له هذا الغرض . فيستشفع فى دعائه المعروف « بموسى الهارب من الرق ، وعيسى رسول الصدق ، ومحمد نبى الحق » فيكون ماذا ؟ ؟

يكون ان الاسرائيلى يحرم هذه الصلاة فى بيعته لأنه لا يؤمن بعيسى ولا بمحمد — وان المسيحى لا يدعوا الله به فى كنيسته لأنه على احترامه دين مواطنه المسلم لا يعتقد النبوة الاسلامية ، ولأنه يدين بربوبية المسيح لا برسالته فحسب وان المسلم يصلى به وحده فكأنه لم يشر فيه الى دين غير دينه ، وان الدعاء القومى لا يكون دعاء لأحد ممن يضمهم قوم مصر .

ولو ان طاهيا صناعته تجهيز الموائد قيل له ان ثلاثة من المدعوين فى الدار ليس يشتهى احدهم طعام الآخر ، فعمل على اطعامهم جميعا بمزج اطعمتهم كلها فى صحفة واحدة لطرد من فوره فاعجب لشاعر قوم يغفل حيث لا يغفل الطهاة ويغرق فى غفلة الذهن حتى أحسبه احيانا يتعمد الأمعان فيها ويطرقها من الباب الذى يفضى به الى نهاياتها . كمن يعثر بمعنى بديع فيتخلله ويتقصاه ولا يتركه وفيه زيادة لمستزيد . فبعد أن خطر له أن يجمع شفاعات الاديان أجمع كى تكون شفاعة لكل دين ، عمد الى لصق الأنبياء نشأة بمصر فوصفه الوصف الوحيد الذى لا يناسب هذا المقام ، والذى

لو كان هو وصفه الفذ لا سواه لوجب السكوت عنه هنا . وصفه « بالهارب من الرق » فهل يدرى شاعر مصر من رق من هرب موسى ؟ ؟ انه هرب من رق المصريين الذين يستشفع لهم به !! وقد نجد فى خفراء الريف كياسة تمنعهم ان يطلبوا الاقالة بما يذكر بالذنب ، أو يتوسلوا الى الشفاعة بما يتضمن الاساءة . فتبارك الله ملهم الخفراء وملجم الشعراء .

ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة : وقد قراناهما لتشابه الخطأ فيهما وربما كان خطؤه فى النشيد أخف واهون ، من حيث أن الأناشيد لا يصلى بها فى المساجد والكنائس ، لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد اننا لا نرى معنى لزج الأديان فى الأناشيد الوطنية ، فقد كان يكون ادل على الوفاق أن لا نجعل وفاق الأديان مباهاة ومأثرة ، لأن المرء يباهى بالشىء النادر او غير المنتظر وهذه الأمم المتحضرة والمتبديه أليس فيها مذاهب مختلفة وعناصر متعددة ؟ فما بالها قد خلت أناشيدها من ذكر الدين ؟ ؟ اتراها لا تحب ان يكون الوفاق شعارا لها .

ولقد قدمنا اننا لا نقصد الى الافاضة فى نقد النشيد ، فكنا نقارنه بما نعلمه من الأناشيد الوطنية الشائعة فنظهر موضع المزية فيها وموضع التقصير فيه . أما وقد اخذنا من مساوئه ما اخذنا فليس يسعنا ان نهمل مأخذا سمعناه من بعض الملحنين والظرفاء بعد عرض النشيد للتلحين : ذلك انهم يستقبحون تلحين احدى مقطوعاته وهى هذه :

تطاول عهدهم عزا وفخرا

فلما آل للتاريخ ذخرا

نشانا نشاة فى المجد اخرى الخ الخ

ويقولون أن التنوين لابد أن يسقط فى الانشـــاد فيخلفه المـد وترجيع الصوت فاذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة « فخرا » ومد بها صوته ورجعه فأى رائحة تفوح منها ؟ ؟ وهل يطاق بعد ذلك سماع النشيد والتخايل بفخره والتمجد بمعناه ؟ ؟ ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد فى موقفه والملحن فى صنعته

نقول : هذا هو النشيد الذى « يبقى لحركة هذه الامة شعارا ، ويتخذ للحوادث الوطنية على وجه الزمان منارا » كما تقول اللجنة ــ نشيد لا يرضى عنه الشاعر ولا الموسيقى ولا المتغنى ، ولم يقرأه أحد فيما علمنا الا عجب من تفضيله على النشـــيد الثانى ومن اجتراء اللجنة على تقديمهما معا الى الصحف غلوا منها فى استجهال الناس ومبالغة فى احتقار رأيهم . ولا أخفى عن القارىء اننى ما كنت اظن فى جمهور قراء الأدب اســتقلالا يقاوم تآمر المحكمين والصحـافة وسماسرة المجالس حتى رأيت الاجماع على الشك فى حكم اللجنـة ونزوعا الى احلال نشيدها المختار فى المحل الثانى من النشـــدين المنشورين ، وفى هذا الاستقلال أمل نغتبط به ونحمد بشائره .

عباس محمود العقاد

النشيد القومي

رأينا ان ننشر هذا النشيد بعد ما كتبناه عن نشيد شوقي ليقارن القراء بينهما ويعلموا ما الذي يخشاه شوقي من التفات الأذهان الى غيره . فان صاحب النشيد المنشور هنا شاب لم يظهر بعد شيئا من شعره للقراء وشوقي يملأ طباق الأرض باسمه كل يوم منذ نيف وثلاثين سنة ، ومع هذا فالفرق بين النشيدين لا يخفى على أحد . وقد اتصل بنا انه كان ثالث الأناشيد التى اختارتها اللجنة فاذا حسبنا للمحاباة حسابها جاز أن نقول انها حكمت بتفضيله على نشيد (كبير الشعراء) ويرى القارىء التفاوت بين النشيدين حتى فى الخصلة التى اشتركا فيها فان مخاطبة الشعب هنا أشبه بمناجاة النفس وهى فى نشيد شوقى مخاطبة أجنبى معتزل للشعب الذى يناديه . وهذا هو النشيد :

يا بنى النيل واحفاد الألى
اطلعوا الفجر لتاريخ قديم
رفعوا الأهرام والعالم لا يبتنى
الا خصاصا من هشيم
اذكروا ان ثرى هذا البلد
من تجاليد الجدود العظماء
لا تطئها ارجل العادى الألد
وبكم أبناءهم بعض الدماء
تربها التبر المصفى المنتقد
لا الذى يقنى الشحاح الأدنياء
فامنعوا كنزكم ان يبذلا
او تعيشوا عمركم عيش عديم

لن تروا فى الأرض عنـــــه بدلا
ما لكم كنز ســـوى هـذا الأديم
****
اذكـــروا أن عليـــكم واجبـــا
لبنينـــــا فى بطـــون الأعصر
فاحفظوا هـــذا التراث الواصبا
فهـــــو حق الوارث المنتظـــر
نتقـــاضى الأرث عصرا ذاهبـــا
فلنصـــنه للعصـــور الأخـــر
ســـنؤديه اليهم اكمــــلا
لم يغـــيره زمـــان او خصيم
فحمى مصر تحـــاماه البـــلى
وبنوها خـير من يحمى الحـريم
****
اذكروا حاضركم كيف يقــــام
ليس يغنينـــا تليد القـــدماء
ما التماثيل المهيبـــات الجســام
وابو الهـــول رهين الصحـــراء !
ما المســلات على باب الرجـام
والنواويس وفيهـــا الموميـــاء !
ما عظـــيم تالد من العـــلا
فى ثنـــايا حاضر غير عظـــيم !
فاجعـــلوا عهد العـــلا متصلا
كاتساق الدر فى العقـــد النظيم
****
اذكروا مهمـــا بلغتم ســـؤددا
انكم لم تبلغـــوا أوج الكمـــال
ابعـــدوا فوق المنال المقصـــدا
فبنو الشمس لهم اقصى المنـــال

كم عبــدنا قرصهـا المتقــدا
فاتقــدنا فى حمــاس ونضــال
نبتنى الهيــكل يتلو الهيــكلا
خالدا فى ساحـــة الرمل مقـيم
وســـيبقى موطـن الشمس الى
يوم لا يبقى لهــا قرص ضريم

****

اذكروا ان التفــانى والغــلاب
فى ســبيل المثل الأعلى البعيــد
نفثــا فيــكم وانتم من تراب
شــعلة غراء من معنى الخــلود
شـــعلة تجلو عن الحق الحجاب
وتصفى النفس من رجس الوجود
فاضرموا فى النفس هذى الشعلا
اضرموها تكفــلوا الفوز العميم
مثلمــا اضرمت النـــار على
مــذبح الرب بمحراب كــريم

****

اذكروا ذلك وامضــوا قــدما
لا تكن وجهتنـــا غير الامـــام
تزدجينـــا دقة القلب كمـــا
يقــرع الطبل لجــرار لهـــام
فنســوغ المــوت ذودا للحمى
ونذيل العمــر ســعيا واعتزام
فبحـق نحن احفـــاد الالى
اطلعــوا الفجر لتاريخ قــديم
رفعوا الاهرام والعــالم لا يبتنى
الا خصــاصا من هشـــيم

عبد الرحمن صدقى

صنم الألاعيب (١)

شكرى صنى ولا كالأصنام . ألقت به يد القدر العابثة فى ركن خرب على ساحل اليم ـ صنم تتمثل فيــه سخرية الله المرة وتهكم « ارستفانيز السماء » مبدع الكائنات المضحكة ورازقها القدرة على جعل مصابها فكاهة النـــاس وسـلوانهم . و ـ لم ـ لا يخلق الله والمضحكات وقد آتى النفوس الاحساس بها واشــعرها الحاجــة اليها ؟؟ ولم يلتزم فى الانسان مالا يتوخى فى سواه من وزن واحـد وقافية مطردة ؟؟

هنالك اذا على ساحل البحر شاءت الفكاهة الالهية أن ترمى بهذا الصنم . وكأنما أرادت أن تبعث على تدبر القدرتين : هنا ثبج مزبد وأبد لا يحد ، وموج لا يكاد يقبل حتى يرتد ، وحياة متجددة وأواذى متوثبة متولدة ـ وههنا نفس خامدة وقوة راكدة وجبلة باردة جامدة . لا تمتد يدها الى الثمار تهدلت بهـا غـذبات الأشجار ، ولا يملأ صـدرها حسن الآصال وروعة الاسحار . ولا يستجيش الحياة فى عروقها منظر الكمائم تتفتح عن آنق الأزهار ، أو الغمائم ترسم فى صفحة السماء المقلوبة ابهى الصور أو الخضرة فى مستهل الربيع تكاد العين « ترى » ذيوعها وانتشارها بل « وثبها » من شجرة الى شجرة ومن عود الى فنن حتى تعود الحقول الى آخر مدى البصر بحرا مائجا من الزبرجد ، لا ولا ينبه شعورها الزهر

فى الصباح البليل وقد اثقلت اكمسه الانداء فتساندت رؤوسها كأن سربا من العذارى على الماء بوغتن فتزاحمن تحت ثوب أبيض .

كلا ليس فى كل مفاتن الطبيعة وروائع الحياة ومعانيها ما يحرك هذا الصنم لأن باطنه شاعت فيه لعنة السماء فعاد أشقى الناس نفسه وصار لا ينقذه منها ومما منته به من صنوف البلاء الا ان تهدمه فؤوس الكاشفى طبقات التراب عنه . وليت تراب الخمول لم يرفع عنه فقد ولد ميتا ولم يجد نور الحياة وحرها ولا اغنيا عنه من جمود طبعه شيئا وان كان وهو ملقى بين أنقاض حياته يتوهم انه ملهب الموج بسياطه ومدير الافلاك بتدبيره وحكمته . يقول كلما اعجبه شكله أو حاله أو أثاره نبذه واهماله « انا اله الشعر » فتلطمه الرياح وتدحرج ثقله على افريز البحر وترميه الأمواج برش من سخرها وتسك أنقابه برعد من ضحكها فما أجله من اله يتضاحك به كل شيء حتى الهواء والماء ! وللناس العذر اذا كانوا اسلم فطرة من أن يكترثوا لدعى أخرس لا ينطق ولا يبين واذا تركوه غارقا فى طوفان من الأوحال النفسية مدفونا فى قبر من بكمه العجيب . وأى بكم أعظم مما أصيب به هذا المنكود الذى لا يكفيه أن يدعى النطق حتى يريد أن يكون شاعرا ونبيا فنيا ورسولا بدين هداية فى الأدب ؟

وأنت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح فى الادب هو علو اللسان وحسن البلاغ وقوة الأداء وان على من يريد ان يشرح دينا جديدا « لأطفال » هذا العالم أو ان يحدثهم بما أحب اسلافهم فى سالف الزمن أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه ان يذكر انهم لم يتعلقوا به بعد ولا استطعموه فاسمرأوه وانه لكى يغريهم به ينبغى له أن يتوخى القوة فى العبارة عما يريد فان الناس خليقون ان لا يؤمنوا الا بمن عمر صدره الايمان .

وقلما ظهر كاتب او شاعر الا بالأداء وكثيرا ما يمتاز بعض

الكتاب وتخلد آثارهم لما أوتوه من القدرة على اجادة العبارة عن آراء غيرهم كأبى اسحاق الصابىء كاتب الملوك والامراء وان كان لا محل لهم بين المفكرين وأصحاب العقول الكبيرة الذين تكون آراؤهم بمثابة محور انقلاب فى تاريخ العقل الانسانى والذين يستطيعون أن يستغنوا الى حد ما عما لا مسمح للاديب عنه . وعلى قدر ابتعاد الكتابة عن مجال التفكير البارد ودنوها من ميدان الذهن المشبوب والعواطف الذكية تكون الحاجة الى ضرورة فن الاسلوب .

ولعل هذا أكبر الأسباب التى أفضت الى خمول شكرى وفشله فى كل ما عالجه من فنون الأدب لأنه لا أسلوب له اذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب وينسج على كل منوال وحسب المرء أن يجيل نظره فى كلامه ليدرك ذلك اذا كان على شىء من الاطلاع فاذا لم يكن فهو لا يعيبه أن يرى أن يستعمل اللغة جزافا ويكيل «توافيق وتباديل » كما يقول الرياضيون ــ من الكلام غير واضحة ولا مؤدية معنى بعينه ويسطر على الطرس أصداء متقطعة لاصوات مألوفة لا رموزا منتقاة لتمثيل المعنى واحضاره . وسنمثل لكل ذلك فى موضعه من هذا النقد .

ويخيل الينا ان شكرى على كثرة الشكوى فى شعره من الخمول وحقده على اغفاله الناس أمره كما هو ظاهر من قوله :

قد طال نظمى للاشعار مقتدرا (؟) والقوم فى غفلة عنى وعن شانى
هذى المعانى تناجيهم فما لهم لا ينصتون بافهام واذهان ؟

وتعزيه بأن الزمان سينصفه ويديل له من خصومه وتظاهره بالاطمئنان الى حكم الأيام فى قوله :

ارمى بشعرى فى حلق الزمان ولا ابيت منه على هم وبلبال

مجاراة للمتنبى وتقليدا له فى قوله :

انام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

نقول يخيل الينا ان شكرى لو شاء لفطن الى سر هذا الخمل وعلة ذلك الاهمال ولعرف ان داءه كامن فيه وأن الناس لا ذنب لهم فقد بحثوا فى شعره على شيء جليل يروع أو حسن يلذ ويمتع أو مستظرف يلهى ويسلى وتقطع به ساعات الفراغ وأوقات البطالة فلم يجدوا عنده غناءهم والفوه يريد ان يجعل نفسه هزؤة السخفاء وضحكة الفارغى القلب والعقل جميعا . ولقد كان هينى الشاعر الالمانى الجليل يسخر من نفسه ولكنه كان بذلك يسخر بالانسانية كلها ممثلة فى شخصه ولا يسع كل قارىء الا أن يحس أنه أصاب موضع الداء . اما شكرى الذى أراد أن يقلد هينى والذى زعم أن العالم يفقد بموته ساخرا عظيما وذلك حيث يقول :

وان « أدرج » فى قبرى قتيل الحب واليـاس
فمن يصـدح بالشعر ومن يسخر بالنـاس

هذا الساخر العظيم والصيدح الفريد والرسول الجليل لا يطمع فى منزلة ملحوظة ولا تشرئب آماله الى سمو قلق وانما غاية ما يرجو فى حياته أن يفوز به على قدر ما استطعنا ان نستوضح غرضه من ايماءاته الخرساء — وكل ما يقنع به ويسكن قلقه وتهدأ ثورته اذا بلغه هو أن « تمر به الحسان فترتضيه » !! هذا هو دينه الذى يدعو الناس الى عبادته ولا ينفك يشكوهم الى الزمان ويشتمهم ويرميهم بالغباء لأنهم لا يستمعون اليه . أليس هو القائل فى بعض هرائه اذا لم يكن الناشر قد نحله ذلك نكاية فيه :

كفانى من نبيه الذكر أنى تمر بى الحسـان فترتضينى

ولا أدرى ماذا يرتضين منه ؟ لعله يدعى بعد الشعر والتبريز فيه أنه جميل ؟ وكيف تمر به وترتضيه ؟ هل أقام نفسه فى معرض تمر به فيه وتجسسه بعيونها وأكفها كما يفعل الصبيان باللعب والصور ؟ وما ذنب نصف النـاس على الأقل اذا كانت هماتهم ومساعيهم وآمالهم تنأى بهم عن دائرته الضيقة .

وعلى انه عجز عن ايضاح هذا الفـرض الضئيل اذ من الذى يستطيع أن يفهم شيئا من ارتضاء الحسان له ؟ ومع ذلك لا يتحرج ان يقول فى نفس القصيدة التى انزل فيها دينه على الناس واطلقها من قيود القافية ـ والوزن احيانا ـ لكيلا يعوقه عن التحدر شيئا معاتبا الغرام :

أبقصينا ونحن مقربونا
من التبيان والأدب الغزير

ولعمرى ما عدا الواقع فى قوله انه مقرب من البنيان والأدب ولكن التقرب منهما شيء وورود شرعتهما شيء آخر ، وهل بل طرف لسانه من معينهما الفياض من يقول :

وفى السعى شيء يعوق الطماح فيخطى الأجل ويصمى الافلا

ولو سئل هو نفسه فى معناه لضاقت عليه مذاهب القول و من يقول فى صفة المشنوق :

ضاقت الأرض عن مآتمه فاء تاض عنها برقة الملحود

كأنما حسب المرزوء فى عقله ـ أن كلما فهمناه من البيت هو المقصود ـ أن المشنوق سيظل معلقا فى الفضاء الى الأبد أو أن الارض تضيق عن شيء من المآتم أو المحامد أو أنها هى التى لفظته وأعلته لتمكن حضرته من وصفه . ومن العجيب والذى يدل على ان شكرى متكلف لا مطبوع وأن ما يزعمه من أنه من أهل المذهب الجديد فى الشعر باطل انه هو نفسه قال ينعى على المتأخرين حماقاتهم وسخافة مناحيهم .

« واذا صلب احد الأمراء قالوا ان قاتليه اجلوه فلم يرضوا له القبر وينشدون أبيات الانبارى التى يقول فيها :

ولما ضاق بطن الارض عن أن يضم علاك من بعد الممات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا من الاكفان ثوب السافيات

ويقولون انظر الى مهارة الشاعر فى قلب الحقائق واظهار الدميم مظهر الحسن .. وليس ادل على جهل وظيفة الشاعر من قرنهم الشعر الى الكذب وليس الشعر كذبا بل هو منظار الحقائق ومفسر لها وليست حلاوة الشعر فى قلب الحقائق بل فى اقامة الحقائق المقلوبة ووضع كل واحدة منها فى مكانها الخ .

فما أحلى هذا الكلام وأصدقه وما أبعد قائله عن العمل به وأدناه الى المتأخرين الذين مسخوا الشعر « حتى صار » كما يقول « كله عبثا لا طائل تحته » أو ما جدره أن يكف عن دعواه أنه من رجال المذهب الجديد فى الشعر وهو لا يقلد الا السخفاء من القدماء باعترافه . أترى هذا المفتون يحسب أنه يستطيع أن يخدع الناس بهذه النظريات التى ينقلها ولا يفهمها اذ لو كان يفهمها ويؤمن بها لما كان شعره من النوع الذى ينعاه على سواه ويعيبهم به . أم ظن أنه يكفى أن يلوك المرء جملا كالببغاء ليكون فى نظر الناس حديثا سائرا مع الزمن مؤديا فرائض الحياة ؟ يظهر أن هذا هو الذى يعتقده شكرى فينا تراه يقول فى مقدمات ديوانه « ان الشاعر الكبير (مثله بالبداهة) يخلق الجيل الذى يفهمه ويهيئه لفهم شعره » ترى له فى بعض الدواوين يصف ليلة ذكرها :

يبيت الندى فوق الزهور مرقرقا
كما انبعث الطل الرقيق ليقطرا

أو قوله فى فلسفة « تزاوج النفوس » :

والنفس للنفس زوج طاب عرسهما
ومهرها الحب لا يغلو لها المهر

من لى بنفس ارى نفسى بها مزجت
كما تمازج فى وديانها القدر

والنفس فى عيشها شتى منافذها
منها القلوب ومنها السمع والبصر

(المقصود هو البيت الاخير) فأى جيل يريد هذا المائق ان يخلقه ليفهم هذه السخافات ؟ (بضم السين كما ينطقها هو) اما كفى أن فى الدنيا سخيفا مثله حتى يطلب ان يوجد من امثاله جيل برمته ؟ واى بلية تكون شرا على العالم من هذه ؟ واى خطب يكون أدهى واعظم من وجود جيل كل تفكير أهله منسوج على منوال القائل :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولنا ماء !

وقد يكون من المستحسن قبل أن نخرج من هذا التمهيد الى النقد التفصيلى أن نورد للقراء مثالا لشعر السخر الذى يباهى به قال :

ناصر صروف الدهر مستقبلا قذاله لو جزته اقرع
فجز من لمته خصلة لعلها من خلفه ترفع
فالدهر إن اقبلت ذو لمة لكنه من خلفها اقرع
مطلعه مثل طلوع المنى وحسرة ما خلف المطلع
ولا ترم بالنم صفعا له فانما يصلع اذ يصفع
قراعه مثل قراع الظبى وانما يقرع اذ يقرع
فاطل قفاه بمداد لعل اللون من روقته يخدع
وغض عنه نظرا واعيا فانما يعديك ما يطبع
وان جرى فى الدم كره له فخير ما يجدى لك المبضع
حجامة لا شك فى نفعها وقد يضير المرء ما ينفع
ولا تعف صحبته انه بالرغم من صلعته أروع
واحن له الراس لكي لا ترى فانها من خلفه تلمع

ونحن انما نمثل لكم هذا المسكين ولا نستقصى مخافة ان نحتاج الى نقل كل شعره على التقريب . ونقول على التقريب لان له أبياتا مبعثرة فى أجزاء ديوانه السبعة لو كان كل شعره على مثالها منسوجا على منوالها لصار صنما معبودا لا منبوذا كما هو الآن . وما بالعجب أن يكون له بضعة ابيات

مفهومة فانك لو جلست ساعة الى مجنون أبله لجرى لسانه بجملة او جمل تلمح فيها أثر العقل . وان كان لم يفكر فى مبلغها من الصواب وحظها من السداد . وللعقل الذاهل المضطرب انتباهات فجائية لعلها من أقوى الدلائل على الرزء فيه وقد جمع صاحبنا الى البكم الذى مثلنا له ضعفا فى الذهن واضطرابا فى جهاز التفكير لم تنفع فى معالجتهما كثرة القراءة والاطلاع على خير ما أنتجت العقول . وقد يعلم القارىء أو لا يعلم أن الاطلاع قلما يجدى اذا كان الاستعداد مفقودا وكان الذهن غير مستو أو صالح « لهضم » ما يتلقاه والانتفاع به وتحويله الى فكرة مكونة من امتزاج الجديد بالموجود ـ كالمعدة الضعيفة لا ينفعها أن تزحمها بألوان الطعام وكثيرا ما يكون الاقبال على الكتب والولع بها نوعا من الشره تحول من المعدة الى الدماغ . وما عدونا بقولنا هذا ما وصف به نفسه حيث يقول « ويتماز الشاعر العبقرى (يعنى نفسه أيضا) بذلك الشره العقلى الذى يجعله راغبا فى أن يفكر كل فكر » ولكن ما به ليس من هذا القبيل وشرهه لا يجعله يحس الا بالحاجة الى قراءة كل كتاب لا الى التفكير . هذا هو ما يعانيه شكرى ولعله من أسباب ضعفه العديدة فانه يقرأ حتى كتب العفاريت وقصص السحرة والمردة والجان لما وقع فى نفسه من ان هذا حقيق ان يقوى خياله ويجعل له أجنحة يحلق بها فى سماء الشعر وفاته هو وأمثاله أن الخيال يجب أن يطير بجناحين من الحقيقة وأن كل كلام ليس مصدره صحة الادراك وصدق النظر فى استشفاف العلاقات لا يكون الا هراء لا محل له فى الادب ومتى كانت حمى الحواس وهذيان العواطف وضعف الروح تعيش فى عالم الشعر ؟

وليس فى الوضوح وقوة الأداء وحسن البيان ما ينفى العمق لان العمق ليس معناه الغموض . فليكن الشاعر عميقا كما يشاء ولكن مع الوضوح والجلاء اذ أيهما أحوج الى النور يراق عليه ويكشف عنه ما تلمسه اليد وهى تمتد وتعثر به الرجل وهى تخطو

أم ما يغوص عليه المرء فى أغوار الفكر ؟ فكل غموض دليل اما على العجز عن الأداء أو التدجيل أو استبهام الفكرة فى ذهن صاحبها .

على انه من أفحش الخطأ واضره بالاستعداد واشده افسادا للفطرة ان يتلكف المرء غير ما أعدته له طبيعته وأن يعالج محاكاة النسور اذا كان طوقه لا يتجاوز دبيب النمال فان العقل الصغير اذا التزم حدوده وقام بما يستطيعه على الوجه الصحيح قد يصل الى غايته من طريقه ولا يجس الحاجة الى قوة العقل الكبير .

وقد ركب شكرى هذا الجهل فتكلف ما لا يحسن واراد أن يكون شاعرا وكاتبا من الطراز الأول وظن أن الاجتهاد يغنى غناء الاستعداد فلا هو بلغ اية درجة مما طمع فيه ولا هو أبقى على خلقه الوادع وقناعتــه بميســور العيش ومنزل انزله الله وحال البسه اياها .

ولما كان السقم فى الكلام مرده السقم فى الذهن فسنبدأ نقدنا بالدليل الضمنى المستخلص من كتاباته على اتجاه ذهنه ثم نعقب ببيان الفساد الذى اكتظت به داووينه ونختم الكلام بتقصى سرقاته واغاراته على شعراء العرب والغرب جميعا .

* * *

لا نقول ان شكرى مجنون فنحن أرفق به من أن نصدمه بذلك واعرف بحاله وبأمراض العقل من أن نهيجه الى الخبال بالايحــاء والتذكير والالحاح ولكننا نقول ان ذهنه متجه أبدا الى هذا الخاطر — خاطر الجنون — وان فكرته مائلة لجو حياته والخــوف منــه منغص عليه كل لذاته وعلالاته وانه حتى فى طعامه يتوخى ما يظن أو يقال له انه يكفل اتقاء هذه النكبة أو يساعد على المقاومة كالسمك والبيض والمخ واشباه هذه الالوان — وان ذكر هذا اللفظ على مسمع منه يدخل فى روعه أنه هو المعنى به فيمتقع — ولا يخفى أن اتجاه الذهن له دلالة خاصة وهو قرينه قلما تخطىء اذ لماذا ينصرف المرء

الى خاطر بعينه لا يعدوه في روحاته وغدواته وفى طعامه وشرابه ويقظته ومنامه وفى أقواله وكتاباته من شعر ونثر - أو منظوم ومنثور على الأصح - ولكن اتجاه الذهن لا يصح أن يؤخذ به وحده فى البت بأن المرء صائر لا محالة الى آخر الطريق . وأكثر أهل الذكاء فضلا عن العظماء فيهم شيء كثير من الشذوذ والجنون والعبقرية بسبيل وهما فى الحقيقة صنوان وحالتا العقل فيهما متماثلتان ، فالعبقرى ذهنه مكظوظ بالآراء حافل بالذكريات يتمخض ابدا عن ادراك علاقات بين الحقائق والأصوات والألوان لا تفطن اليها عقول الاوساط . والمجنون فى ذلك نده وقريعه وكلاهما ترجع مميزات تفكيره وعمله الى فرط النشاط فى بعض نواحى المخ أو فتورها او قابليتها للتنبيه والتهيج وكثيرا ما تنقلب العبقرية جنونا والجنون عبقرية . وقد فطن الأقدمون الى هذه العلاقة ولمحوها وان كانوا لم يتقصوا كالمحدثين غير أن جنون العبقرية منتج يخرج - كما يقول افلاطون - الشعراء والمخترعين والأنبياء أما الجنون المألوف فهذا عقيم نعيذ صاحبنا شكرى منه . ولا ينبغى أن يتوهم احد أن العبقرية هى الجنون فليس أفحش من هذا الخطأ ولا اقتل من ذلك الظن لأن العبقرية قوة زائدة عن نصيب الرجل العادى وقلما يؤتاها المرء ولا يصحبها نوع من الاضطراب فى التوازن العقلى والعصبى .

قلنا ان ذهن شكرى متجه الى هذا المعنى وقد يكون هذا غير راجع الى علة أصيلة فيه الى ما يجشم نفسه من المتاعب ويحمل عليها ويرهقها به كأن يكتب جزءا من ديوانه فى شهر واحد حتى كأنما هو مأجور على ذلك ومشروط عليه أن يتمه فى وقت محدود . وقد كانت نتيجة ما أصابه من الكلال ان حدثته نفسه باحراقه بعد طبعه ومع ذلك لم يعمل بنصيحتنا ولم يعط نفسه حظها من الراحة ولا عرف لجسمه وجهازه العصبى حقهما عليه وظل يخرج للناس الجزء تلو الجزء كأنما يخشى أن يخب به المرض ويوجف

بعقله الداء فلا يستطيع ان يصدح بالشعر ويسخر بالناس » ! !
وماذا اجناه كده ؟ كان كل جزء يصدر فكانما هو حجر وقع فى بئر فلا هو « صـدح » ولو فى حمام ولا استبقى قوة جسمه واستواء عقله .

والى القراء امثلة لذلك . قال من قصيدة « الحب والموت » .

حنينى الى وجه الحبيب جنون   جنون يهيج القلب وهو شجون

وقال من قصيدة الدفين الحى :

فهاج هياج الشر فى الأسر طرفة   وادركه حتى الممـات جنـون

وقال من قصيدة غاية الحب :

وان كنت عنـدى جئت بالعقل والحجى
وان لم تجىء فالقلب مجنون ثائر
ولكن وجهى منك جن جنـونه   فها انا من حبى بحسنك هاتر

وقال فى « طبع الانسان » :

ان بالمرء جنـونا جاعلا   نوبة الشر فيـه تحتدم
لا ينال البرء من نوبتـه   او يذيع الشر منه والالم

وقال من « مرآة الضمائر » وكان له فى البيت معـدى عـن لفظ الجنون :

وفى كل وجه من جنون ومن اذى   ملامح لا تخفى تناديك بالجهر

اذ من الذى يستطيع ان يدعى ان فى كل وجه ملامح من الجنون ظاهرة ناطقة ؟ ومن غير السكران يحسب كل امرىء غيره سكران ؟
وقال من قصيدة « سلوان الجنون » :

عسى ان تجـن النفس فيكم جنـونها
فلا ذكـرة تصبى ولا فكـر يخطـر
فان جنـون النفس سـعد وراحـة
وان عنـاء الحب ذاك التـذكر

فانســـاك حتى لســت ادرى اعائش

على الأرض تســعى ام دفين معفــر

فان يبلــغ الحب الجنــــــون فلا تلم

اما كل مجنــــون على الهجــر يعذر

وقد كان له مندوحة عن تمنى الجنون وكان فى وسعه أن يطلب الموت أو السلوان ولكنه لشقوته يحسب أن المجانين سعداء لا يكرب احدا منهم خاطر ملح أو وهم جاثم ولو انه سال طبيبه لعرف منه أن بعض المجانين يعذبون انفسهم بما يتخيلون وانهم كثيرا ما يخلقون لانفسهم جحيما من الأوهام يصلونها ،على أنا لا ندرى من أين جاءه ولماذا ظن أن حبيبه سيلومه ويعاتبه على الجنون اذا بلغ الحب ذاك؟ ولكنه معذور على هــذه الـسفسطة على كل حال والناس كذلك معذورون اذا لم يقرءوا نظمه .

وقال من قصيدة « صنم الملاحة » :

بلغ الغرام الى الجنون فلا عتــاب ولا ندم

وقال من قصيدة « الحسود » :

وادركه مس الجنون واظلمت عليه السماء والنهــار جميل

ومن قصيدة « بالله ما تفعل لو بلفوك » :

بالله ما تفعل لو بلفــوك انى عرتنى جنة من هواك

وكيف لا يذهب لبىوالهوى اذا مضت لى اشهر لا اراك

ومن قصيدة « انا مجنون بحبك » :

انا مجنــون بحبــك فانزل غــلة صــبك

ومن قصيدة القديم والجديد :

ومن العشق جنــــون خابل يزدرى المرء له وقع التهم

انما الحب جنون وجــوى ورجاء واجتــــرام وندم

وقد ترقى فى هذا المعنى من القول بانه هو مجنون الى نســـبة

الجنون الى الناس كلهم الى الحياة نفسها والدهر أيضا . قال من قصيدة « جنون الحياة » :

لا ترع فالدهر مجنـــون — كل حي فيــه مغبـــون
جن من حــول ومقدرة — وكذا ذو الحول مجنـــون
فتضاحك ثم قــل ابدا — ان هــذا الدهر مجنون
دهــرنا دار المجــــانين — كل حي فيــه مســـجون

ومن قصيدة « بعد الحس » :

وكنت أعد الحسن فيك فطانة — وان جنوني في هواك صواب

ومن قصيدة « وحي الشعر » :

كجنون النعيم والبؤس فيهم — وهي تبـــدو لغيرهم كذكاء

وفسر البيت بقوله « أي عواطف الشعراء تهدى غيرهم ولكن من أجلها يحس الشعراء جنون اللذة والآلام » فأنا أشهد الله والناس اني لا احس هذا الجنون . ولكني احسبه سينكر على الشاعرية لهذا على الأقل . وقال من قصيدة « مشترى الأحلام » :

لو يستحيل المسحيل على الورى
وانال من احـــــلامه ما اطلب
لجننت جنـــــة قادر متحـكم
يرضى على هـــذا الأنام ويغضب

فالحمد لله الذي لم يحكم في الناس نزوات جنونه وقال من قصيدة صوت النذير :

ام ضحكة الرجـل المجنون من حزن
لشد ما نال منـك البؤس يا رجــل
حتــــام تنــكر حقـــا غير مشتبه
لا يكــره الحــق الا من به دخـــل

وهذا تقييد عجيب فقد يكره المرء الحق ويكون بغضه اياه راجعا الى اى سبب غير الجنون :

وقال من قصيدة بين الحب والبغض :

وان بقلبي من جفـائك جنـــة
فان رام يوما قتلكم ما تأثمـــا

فاسقى جنـونى من دمائك جـرعة
وهيهـات يجدى القتل قلبا مكلمـا

فيظهر أن حبيبه عرف ذلك منه وأدرك أن جنونه قد يدفعه الى الاجرام فتحرى البعد عنه فما اشقاه ! جنونه يغرى حبيبه بالهجر والهجر يزيد فى جنونه فأين المخرج من هذه الحلقة والى أى حال ينتهى به هذا الدوران ؟ ونحن بعد لم تقلب الا جزءا من ديوانه لا يبلغ عدد صفحاته السبعين وناهيك بما فى الاجزاء الاخرى . ولم ننقل من شعره الا ما كان لفظ الجنون فيه صريحا لا معناه والا فان هناك ابياتا عديدة تضمنت هذا المعنى وان خلت من اللفظ كقوله :

امشى (احدث نفسى) عن محاسـنكم
حتى يخـال حديثى لغو نشـوان

نشوان ليس له عقـل فيســكنه
الحب خمرى وليس الخمر من شانى

فاذا كان هذا ليس بالجنون فلا ندرى ماذا يكون ؟؟ وقـوله وهو ادهى :

واهتف طول الليل باسـمك جاهدا
وهاجس هـذا الذكـر داء مخامر

فهو يقطع الليل كله مجتهدا فى الهتاف ويعترف بأن هذا داء ملازمه لا عرض زائل وقوله :

(غاب رشد الناس) عن انفسهم

ضاع منهم تحت اشــــلاء الرمم

... الخ الخ

وليس الأمر بمقصور على جولان هذا الخاطر فى نفسه وملازمته اياه أبدا وعلى الصياح طول الليل وتحديث نفسه بمحاسن الحبيب فى الطريق كالسكارى والاعتقاد بأن كل الناس مجانين وان الحيــاة نفسها جنت والدهر كذلك وأن لكل شيء جنوناً مجنا وأن الزمن دار المجانين ومستشفىً مجاذيب وان الناس كلهم مرضى كما يقول :

فى كل دار من جواه مريض وكل قلب فيه جرح رغيب

كأنما يريد أن يعتذر لنفسه من استهتاره وما عرفنا ان الأمر كما وصف والحال على ما زعم وان كنا نعلم ان الحب بنى عليه بقاء النوع ولكن ليس كل حب ذاهبا باللب نقول ليس الامر بمقصور على ذلك فان شكرى على ما يظهر من كلامه بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس وهو ــ تساهلا فى التعبير ــ مرض يجعل صاحبه يتوهم مثلا انه يسمع أصواتا أو يرى أشباحا تختلف وضوحا واستبهاما حسب درجة الحالة فاذا أصاب العين رأت ما لا وجود له فى الاذن سمعت ما لم يصدر فعلا من الاصوات وقد لا يصحبه أى اضطراب محسوس فى القوى المفكرة وان كان لا شك مع ذلك فى انه اضطراب محلى فى المخ اذا اتسعت رقعته أحدث الجنون وكثيرا ما يصحب بعض حالات الجنون « هذيان الاذن » أى أعتقاد المصاب انه سمع أصواتا أو ان أرواحا تخاطبه ومن ذلك ما رواه الدكتور نسبت عن بائع كتب فى برلين اسمه نيقولا كان يرى جثث الموتى تســــير فى الطرقات وأشباح الآدميين والحيوان أيضا وكان يسمع أرواحا

تلازمه بالليل تتخاطب وقد تكلمه ويسال بعضها عن بعض وقد عولج من ذلك بوضع « الدود » على عنقه اذ كان سببه كثرة الدم الصاعد الى بعض نواحي المخ .

وقد قال شكرى ـ أعاذه الله من شر ذلك ـ فى الصفحة الثانية والخمسين من الجزء الثالث تعليقا على بيته هذا :

او كنور البدر فضيا له   وتر فى القلب فضى النغم

« ما رايت القمر الا احسست كأن نواقيس تطن فى اذنى . وأن الذ الأنغام رنة الفضة المجوفة » اهـ

فهذا كلام لا مجال فيه للتأويل والتخريج وهى قاطعة فى أنه فى كل مرة يرى فيها ضوء القمر (يطن) فى اذنه صوت نواقيس فضية ولنا ان نلاحظ أمورا :

أولها ـ أن البيت لم يكن يستدعى هذا القول منه لأن معناه مفهوم بدونه

وثانيها ـ أن ما (يطن) فى أذنه « كلما » راى ضوء القمر ليس له علاقة كبيرة سوى علاقة اللفظ العارض ـ بتقريره أن الذ الأنغام رنة الفضة المجوفة خصوصا وان رنتها « ليست » الذ « الأنغام » وان كانت « اخلص » الأصوات واصفاها والفرق كبير بين صفاء الصوت وبين حلاوة النغم . نعم أن الصفاء من عوامل الحلاوة فى النغم ولكن خلوص الرنة من الاكدار ـ مع التسامح فى عد الرنة نغمة ـ لا يمكن أن يعد « ألذ » الأنغام .

وثالثها ـ انه كلما رأى « ضوء القمر » طن فى اذنه هذا الصوت ذو الرنين ويعرف الخاصة واهل الاطلاع والملاحظة أن « ضوء القمر » مقرون فى أذهان شعوب كثيرة بذهاب العقل والهذيان كما يدل على ذلك استعمال هذه العبارة فى لغاتها ورابعها انه ان كان

صادقا فيما يزعم فالدلالة هنا كبيرة وقد لا يتردد المرء فى الذهاب الى إنها مريبة وان كان قد كذب على نفسه فلنا ان نتساءل لماذا يعزو اليها غير الواقع ولماذا اختار من الكذب ما يدل على اضطراب فى طائفة من الأعصاب لها اتصال عظيم بالدماغ ؟

ولو شئنا لامتد بنا نفس الكلام واتسع لنا مجال القول فى هذا الباب ولكننا قد أطلنا وان كان التحليل ممتعا مغريا بالاسهاب والافاضة ولذلك نجتزىء بملاحظة اخرى وهى أن لشكرى كتابين غير دواوينه احدهما اسمه الاعترافات وليس فيه ما يستحق الذكر الا انه وصفه بانه « أحلام مجنون » والآخر رواية اسمها « الحلاق المجنون » وهي كذلك تافهة لا قيمة لها وقد احتذى فيها كاتبا روسيا فى رواية اسمها « هل كان مجنونا » وموضوع قصة شكرى ان حلاقا ذبح زبونا له لان رأس الزبون تشبه راس الخروف فاغراه هذا الشبه بذبحه بموساه وهي فى الحقيقة سلسلة قصص من هذا النوع مروية علي لسان زبائن الحلاق .

وقد سبق لنا ان نبهنا شكرى الى ما فى شعره من دلائل الاضطراب فى جهازه العصبى وأشرنا عليه بالانصراف عن كل تاليف او نظم ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأن جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا ولم تكن أمامنا فى ذلك الوقت كل هذه الشواهد فلعله الآن وقد راى كثرتها وتوافرها ــ وهى كثرة مروعة ــ يرجع الى اينا ويرتضى ما ارتضينا له وما هو خليق أن يحمده الناس منه فلا يحاول أن يغالب مشيئة الطبيعة التى لا تخلق الابكم الا وهى قادرة على الزامه البكم طول حياته ولو « جن » تحرقا على النطق .

الجـــزء الثانى

أدب الضعف

الأدعياء في كل بلد كثيرون وفي كل قطر كالذباب يعيشون عيالاً على الادب وحميلة على اهله وذويه ولكنهم فيما نعرف لا يعدون الطنين في غير هذا القطر ولا يعدو جمهور الناس معهم أن يلحظوهم كما يلحظ احدنا العناكب ناسجة لها بيتا بين جدارين فيقول لخادمه او ربة بيته ازيلي هذا واتي عليه بالمكنسة ثم لا يقولها حتى ينسى أمره ويذهل عن خبره . اما في مصر فالحال على خلاف ذلك والامر على عكسه ونقيضه . يظهر الدعي فيستولي على الميدان ويخر الناس له سجدا الى الأذقان ويباهون به الأمم والازمان فان سألتهم في ذلك وعلته وماذا بهرهم منه وكيف كان على حد تقصر عنه قوى البشر ومنتهيا الى غاية لا يطمح اليها حتى بالفكر احالوا وتهربوا وفتحوا أبوابا من التعسف لا تستند الى اصل ولا يعتمد فيها على عقل وظنوا بك الفند وجروا في أوهامهم الى آخر الأمد كأنما التوق الى ان تقر الامور قرارها وتأخذ الاشياء اقـدارها شيء ليس في سوس العقل ولا في طباع النفس . وليس الامر بالهين الذى تتأتى مداواته ويستيسر علاج ما يعرض في الآراء منه فان الداء عيـاء والبلاء عظيم والمصاب كبير . وأصل الداء ومعظم الآفة والذى صار حجازا بين القوم وبين التأمل وأخذ بهم عن طريق النظر مرض في عقولهم شديد الخفاء أورثهم اياه الجهل وما طبعتهم عليه العصور القاسية الماضية حتى صاروا لا يملكون ان يصغوا لما يقال لهم ولا أن

يفتحوا للذى تبين أعينهم او يأخذوا لأنفسهم بالتى هى أملأ لأيديهم واعود بالحظ عليهم حتى صاروا من كل امر فى عمياء قصاراهم ان يكرروا الفاظا لا يعرفون لشىء منها تفسيرا ويرددوا ضروب كلام ان سئلوا عنها لم يستطيعوا لها تبيينا . وما لهؤلاء نكتب ولا من اجلهم نتكلف أن نكوى عرق الباطل ونخرس السنة الكذب والتدجيل وننقض بناء المنكرات والشناعات التى أقامها نفر من الأدعياء نشأوا فى غفلة الزمن فان من المستحيل أن نرجع بهم الى سنن التفكير والبحث والتقصى وحب الاستطلاع ولكنا نكتب ونشرح وننصب الميزان لمن يحس انه رزق عينيه ليفتحهما على الاشياء ويجيلهما فيها لا ليغمضهما دونها واوتى العقل ليتصرف به فى الامور ويتبين النقصان والرجحان ويعرف الصحيح والسقيم لا ينكر فى ذلك حسه ولا يغالط فى الحقائق نفسه ولا يحب أن يستسقى الا من المصب او يأخذ الا من المعدن مؤثرا الغبينة والهزيمة والفشل على احالة الاشياء عن جهاتها وتحويل النفوس عن حالاتها ونقلها عن طباعها وقلب الفطر الى اضدادها — لهؤلاء الذين هم معقد الأمل ومناط الرجاء نفصل القول ونضع اليد على الخصائص ونسميها ونعدها ونرفع لعيونهم كل قطعة من القطع المنجورة من الجهة التى تكون أضوأ لها واكشف عنها صابرين على طول تأملهم مغتبطين بعدم قناعتهم الا بالاقتناع . اذ ما خير مقلد فى ظاهر عالم وشاك فى صورة مستبين ؟ ؟

وليس فى مصر شىء عرض للقوم فيه من قبح التورط ومن الجرى مع الاوهام والذهاب الى اشنع الشناعات وأسوأ المنكرات ما عرض لهم فى الأدب حتى صاروا اذا عمد عامد منهم الى الالفاظ وجعل يتبع بعضها بعضا من غير أن يتوخى فى تنسيقها معنى فقد صنع ما يدعى به كاتبا وشاعرا ومؤلفا يضن الزمان بمثله ويعيى الامم مكان ندهِ . وفساد هذا من البداهة بحيث لم يكن يحتاج الى تنبيه أو ان يتجشم احد منا اقامة الحجة عليه والتدليل مع التبسط

فى الايضاح وتحرى البساطة فى سوق المبادىء وتفصيل الاصول وما ندرى غدا بعد جيل ماذا يكون ظن الناس بالامة اذا راونا ندلى بالحجة والبرهان على ما لا حاجة به الى الصفة والتبيان وما صار دستورنا معهم لهم به عن ايضاح الاصول والبداهة غنيان ؟ أفلا يعذرون اذا شبهوها بالاطفال تتقاذف اللعب وهى تحسبها ادوات الكر والطعان ؟ بل ولا يعرفون ما كنا نستطيعه لولا موت القلوب وعمى العيون واعوجاج الأذهان .

ولماذا لا يرون من اعجب العجب ذلك الذى عليه الادعياء المقلدون فى امر الأدب ؟ خذ من شئت من هؤلاء الادعياء لا تجد فى الامر الاعم شيئا تكون الطبيعة فيه قابلة ثم هو مع ذلك لا يرى الذى تريه ولا يهتدى لما تهديه . بل ماذا عسى يكون راى الغربيين اذا اطلعوا على هذه المنكرات الشنيعة التى تتمخض عنها الطبائع الممسوخة والأذهان المنتكسة ؟ ان الجيد فى لغة جيد فى سواها والادب شىء لا يختص بلغة ولا زمان ولا مكان لأن مرده الى اصول الحياة العامة لا الى المظاهر والاحوال الخاصة العارضة . وكذلك الغث غث فى كل لغة فى اى قالب صببته وسبكته وباى لسان نطقته .

وقد لقينا من التشجيع ما يغرينا بالاسترسال ووجدنا من الاقبال ما قوى الآمال فى صلاح الحال وهاكم صنما آخر من معبودات الضلال نهدمه ونلقى به بين الاطلال .

ترجمة المنفلوطي

عنى السيد المنفلوطي بترجمة حياته فكتبها وصدر بها الجزء الاول من نظراته وذيلها بتوقيع من لا يبالى دسـها عليه فى كتاباته ونحن لا يعنينا هذا الأمر الا من حيث دلالته على طريقة السيد فى الاحتيال على الشهرة واقتناص حسن السمعة وعلى اعتماده هو وأمثاله على تأثير الالقاب والمناصب فى عقول البسطاء كلما أرادوا ان يزفوا الى الناس عرائس افكارهم أو يشيعوا إلى قبور صدورهم أموات خيالهم . واذ كان هذا كذلك وكانت وظيفة الناقد أن يرسم صورة صادقة للكاتب ويقدم وزنا عادلا لآثار قلمه ومظاهر نفسه وكان الذى يعنينا من السيد ما خطه يراعه الرشيق وأملاه عقله الرقيق فان الذى يستحق أن يكون على ظاهر الامر مقدما على سواه وحريا بأن يستوفيه النظر ويتقصاه هو القول على ما نحل نفسه من الفضائل ثم نتبع ذلك جملة من القول فى « بنات » عقله ثم ناتى على ذكر رواياته وقصصه فى أثر هذا وذاك على أننا ربما عطفنا عنان الكلام على الاخيرة قبل الاوان توفية للحقوق وبيانا للفروق وكشفا عن الحال وايقافا للقارىء على مبلغ سعة المجال .

***

السيد مصطفى لطفى المنفلوطي رجل شريف جاء الى هـذه الدنيا المرزوءة منذ خمسة وأربعين عاما من ابوين كريمين كرما يثبته ان اولهما ــ ولا ندرى أيهما يعنى ولكنه أحدهما على كل

حال ـ ينتهي نسبه الى الحسين بن على جد كل مسلم ومسلمة ومنافس آدم بكثرة النسل « تفاقم » الذرية . وثانيهما الى اسرة جوربجى التركية « المعروفة بالشرف العظيم والمجد المؤثل » .

ولم ير السيد زاده الله شرفا ورفعة لسوء حظ النقد أن يزيد على هذا فى بيان نسبه الا أشياء ظاهرة لا تحتاج الى تدوين ولا تحتمل الايضاح والتبيين كقوله انه « ولد فى منفلوط من مدن الوجه القبلى فى جنوب مصر » وأن أسرته هناك « مشهورة بالشرف والتقوى والعلم والفضل » فان لقب السيد يدل على ذلك ونسبته تهدى الى معرفة ما هنالك ولكنا نحسبه خشى أن يضل القارىء ويختلط عليه الأمر فيتوهمه مقذوفا به الينا من المريخ ـ والحق أن له العذر فى خوفه هذا اذ ليس فى كتابته ما يدل على انه مثل ابناء آدم احساسا بالحياة وفهما لها وجريا على سنتها واداء لفرائضها كما سترى مما سنورده عليك بعد ونعود الى ترجمته فنقول وليته .اذ عنى بهذه التفاصيل البديهية كان قد ساق الينا ما هو حقيق أن يعين الناقد على تقدير أثر العوامل الوراثية فى تكوين اخلاقه النادرة التى يصفها بأنها « انقباض عن الناس ووحشة يحسبها الرائى صلفا وكبرا وما هى بالصلف ولكنها الرزانة والوقار والأنفة والعزة والبعد عن سفاسف الامور والترفع عن مخالطة من لا تعجبه أخلاقه ولا تجمل فى نظره أطواره . وعفة حتى عن مد يده الى أبويه وسخاء وجود بكل ما تملك يمينه وأدب وحياء وحلم يظنه الظان عجزا وضعفا فاذا غضب وقليلا ما يفعل فهو الليث قوة وشجاعة وايمان قوى كالطود الراسخ وصبر جميل على ما يذهب بلب الحكيم من حوادث الأيام فقد مات له طفلان فى اسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة ثم ماتت زوجته بعد ذلك فجلس الى أصدقائه يحادثهم ليلة وفاتها كأنما المرزوء سواه وليس أحقر فى نظره من مدح المادحين ولا أحقر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه وليس ابغض اليه من الكذب

وكثيرا ما كنت اسمعه (!) يقول « لا طلعت على شمس ذلك اليوم الذى يرضى فيه عنى الجاهل او يعجب برأيى البليد الى آخر ما لا يستكثر على سليل النبوة العربية والفتوة التركية .

ولكننا بتنا لتقصيره فى ترجمته لا نعرف مقدار فضل الوراثة ومبلغ الاكتساب فى هذه الفضائل وفى كل هذا الادب الجم الذى جعله ـ كما يقول ـ الكاتب الفريد الذى يحافظ على أسلوبه البليغ فى جميع حالاته وشئونه سواء فى ذلك المعانى المطروقة لكتاب العربية الأولى او التى لم يكتبوا عنها شيئا ولم يرسموا لها اسلوبا مما يدل على أن السليقة العربية ملكة من ملكاته لا عارية من عواريه .

وليس فى أن يترجم المرء لنفسه من عيب ولا هو ببدعة ممن هو كالسيد الشريف المسب لا يحدثه الا عن نفسه ولا يصدر فيما يكتب عن سوى يومه وامسه . ولكن ما هكذا يكتب الناس عن انفسهم ويتقدمون الى قرائهم بتراجمهم ووصف آبائهم . وما للقراء ولاجدادك الذين لم تزدنا بهم علما فيشفع لك ما أفدت فى سماجة ما كتبت ولقد قرأنا لجيته شاعر الالمان الضخم كتابا فى تاريخ حياته يقع فى اكثر من ستمائة صفحة ولا نذكر أنه أورد اسم أبيه حتى ولا فى سياقة الحديث دع عنك خلع حلل الثناء على أجداده . ولقد جعل وكده أن يشرح لقارئه أدوار نموه العقلى وكيف تكونت أخلاقه ونزعاته وعاداته وكيف نشأت التفاتا تذهنه وهو ما يعنى قراء التراجم . أما الاجداد والآباء فما دام الكاتب لا ينوى أن يذكر ولا يستطيع أن يعرف عنهم اكثر من الأسماء فخير له وللناس أن يسدل عليهم أستار الخفاء حتى لا يجمع الى الجهل أو العجز نقيصة المباهاة الكاذبة أو عيب الادعاء .

على انه ان فاتنا هذا الذى كنا نحب ان لا تخلو منه الترجمة ولم نعتض منه الا ما هو منشوء ثقيل على النفس فان فيما كتب السيد الشريف الجليل العربى التركى الحسينى الجوربجى

المنفلوطي الكفاية فانه أعزه الله لم يألنا كشفا عن آرائه واخلاقه وفضائله ومحامده وأسرار نفسه ودخائل صدره وهواجس خاطره ولم يضن على قارئه بوصف احواله وكيف يكتب وكيف يأكل ويشرب ويلهو ويلعب ولأى شيء يطرب ومم يغضب وماذا يمقت وبم يعجب وغير ذلك مما ليس وراءه زيادة لمستزيد وما بتنا معه فى غنى عما يبدىء فيه فى ترجمته ويعيد من صفات ما كاد يثبتها لنفسه حتى نسى أنها له فانتحل غيرها من المقالات !!

ويالها من شجاعة لا تجعل صاحبها يحفل التهم أو يعنى نفسه بالصدق فيما نحلها من الشيم ! فهل تعرف أيها القارىء من أى ضروب الشجاعة هذه فان لها لأنواعا وضروبا ؟ ليست شجاعة الايمان ولا شجاعة يبعثها احترام الذات والاعتداد بالنفس كلا ولا شجاعة الطيش وانما هى شجاعة .. الطعام !! نعم والموائد الممدودة والاخونة المنصوبة . وانك أيها القارىء اذ تنكر هذا القول علينا وتمط شفتيك وتزوى ما بين عينيك لتدل بذلك على أفحش الجهل وافضحه بأسرار فعل الطعام . ولكنك اذا ساءلت نفسك ماذا عسى ان يخشى السيد الشريف الحسيب النسيب بعد أن يجمع حول مائدته الاسبوعية فيمن يجمع هؤلاء المتسولة من اصحاب بعض الوريقات القذرة ويملأ لهم بطونهم كنت حقيقا أن تفهم ما نريد من شجاعة الطعام . اتراك لم تسمع بالمثل العامى القائل « اطعم الفم تستحى العين » ؟ وماذا صنع السيد أكثر من الجرى على السنن العامية فى كل شيء ؟ فى كتابته وفى معاشرته وفى اتقائه الالسن ــ وهذا هو السر ــ فاعلمه ــ فى انك لا تسمع به فى هذه الوريقات ولا تراها تلهج به مادحة ولا قادحة .

ومن ظريف ما ترويه فى هذا المقام ان السيد سمع بعزمنا على اخراج هذا الكتاب فجاء يدعونا الى مائدته وارسل يلح علينا فى « تشريفه » فلم ينقذنا من الحاحه ولم ينجنا من موقف الغدر ونكران جميل مائدته الا المرض ! فما أحسن المصائب فى بعض الأحيان ؟

الحلاوة والنعومة والأنوثة

وبعد فماذا فى كتابات المنفلوطى مما يستحق أن يعد من أجـله كاتب و أديبا الا اذا كان الادب كله عبثا فى عبث لا طائل تحته ؟ سمعت بعض السخفاء من شيخونا المائقين يقـول : « ان فى أسلوبه حلاوة » ولو انه قال « نعومة » لكان اقرب الى الصواب ولو قال « انوثة » لاصاب المحز . وهذا كلام يكاد يعده من لا عهد له بغير كلام المقلدين من الالغاز والأحاجى فلنفسره لفائدة الناشئة ان لم يكن لفائدة ذاك الذى لا نرجو منه خيرا . قال مهيار :

فيارب قد دمى مقتلى بما نظرت واعف عن قاتلى

هنيئا لحبك ــ ذات الوشاح. دم طل فيـــــه بلا عاقل

وحبى ذكــــرك حتى لثمـــــت مسلكه من فم العاذل

هذا مثال للنعومة ــ كلام مصقول لين الانحـــــدار تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصقل فيه اذا نثرته وتأملت ماتحاشاه الشاعر من الالفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه . وهو بعد اذا تدبرته لم تشعر أن وراءه شيئا لا من العاطفة ولا من المعنى ، وغاية ما فى الأمر ان صاحبه اراد القول فى هذا المعنى بغير باعث من النفس فهو عبث محض ولما كان الشاعر قد أعوزته العاطفة هنا ونقصـته البواعث فقد لجأ الى الاحتيال والصنعة وحسب الافراط فى الرقة يكسب الجمال ويغنى عن الاحساس به فقلب كل شيء وحمل عينه

ذنب النظر الى الحسن ودعا الله ان يبوء المقتول بالقاتل تناهيا فى اللين وذهابا الى اقصى المدى فى الطراوة ولا قتل هناك ولا قاتل ولا دم مطلول بغير عاقل وانما هو التطرى والرخاوة ثم ذهب يقول انه لفرط حبه لذكرها قبل فم العاذل حين جرى لسانه بحديثها وهو من سخافات التطرى ويكفى لادراك مبلغ السخافة أن تتصور مثل هذا المنظر حادثا واقعا . وامثال هذا كثير فى غزل المقلدين والعابثين لانهم لما فاتهم صدق السريرة لجأوا الى الصقل وضحوا فى سبيله الرجولة والعقل . ومهيار بعد من الفحول أو هو على آثارهم ماض وهو من القليلين الذين ينم شعرهم عن بعض الادراك للفرق بين مذهب العرب فى الشعر ومذهب الآريين ـ أو الفرس فقد كانوا لا يعرفون الا عربا وعجما . يدل على ذلك قوله يصف شعره :

حلى من المعدن الصريح اذا غش تجار الاشعار ما جلبوا
يشكرها الفرس فى مديحك للمـعنى وترضى لسانها العرب

فكأنه لم يغب عنه عناية العرب باللفظ واكبارهم شأنه وذهاب غيرهم الى المعنى قبل اللفظ وله ما لا يكاد يدانى فى حلاوته وعذوبته كقوله :

اذكـروا ذكرنا عهدكمو رب ذكرى قربت من نزحا

وقوله :

آه على الرقة فى خـدودها او انها تسرى الى اكبادها

فاذا كان مهيار وهو من علمت يقع فى هذا فما ظنك بالمتأخرين والعابثين الذين افتنوا فى العبث كشعراء اليتيمة حتى ليخيـل للانسان انهم كانوا يتبارون ليروا أيهم اعظم تطليقا للعقل واتيـانا بالمستحيل ونسيانا لأحكام الحياة . اما الحلاوة فتجدها فى مثل قول الشريف الرضى :

أنت النعيم لقلبى والعذاب له فمـا امرك فى قلبى واحـلاك

وقوله من القصيدة عينها :

عنـــدى رسائل شـوق لست اذكرها

لولا الرقيب لقــد بلغتهـــــا فاك

وليس يمنعك ان تتذوقها من البيت الأول ذكرَ المرارة فانها هنا اخف ما تكون وليست كل القصيدة من هـذه الطبقة ولعـل التمثيل لذلك من الشعر الحديث أو الغربى اجدى وانفع فى تبيين المراد ولكننا لا نحب أن يفهم احد اننا قوم افتتنا بالغرب حتى ذهلنا عن محاسن العرب ولا أن يظن بنا الاعـلان عن النفس وأن كان لا غضاضة فى ذلك ما دمنا ندعوْ الى حق وقولة صدق .

ومرجع هذه الحلاوة الى ما ترك من التنوع فى الاطراد والى احساس الشاعر باللذاذة والحسن احساسا هو مزيج من الاعجاب والطلب . خذ البيت الاول مثلا « أنت النعيم » وتأمل اطراد العاطفة فى مصراعيه وتوازن قوتها فى شطريه وكيف انه مع هـذا الاطراد والاستواء يفجؤك بالتنوع من حيث لا يصدمك . ويريك وقعـين مختلفين ولكنهما غير متنافرين لأن العبـارة موزونة على قـدر الاحسـاس لا أكثر ولا اقل ولو انه كان قال « أنت النعيم لقلبى والجحيم له .. فما امرك .. الخ » لأحسستَ التنـافر واختلاف القوة فى الشطرين ولما استعذبتَ منه قوله « فما أمرك الخ » بعـد لفظة الجحيم . وتأمل فى عقب هذا قول المسكين شكرى يصف جميلا ويبالغ فى حسنه :

كانمـا صـاغكم كيمـا يحبكمو

يا فتنة الحسن قد جار الهوى فينا

يعنى الله فى صدر البيت ـ فانك تحس اذ تنتقل من الشـطر الاول الى الثانى كانما قذف بك من رأس جبل أشم فهنا لا اطراد ولا تساوق وكانما صادف ماء البيت انحـدارا مباغتا وكانك بين مصراعيه على أرجوحة غير مستوية .

وتدبر بيت الشريف الثانى وانظر تحريه الدقة فى العبارة عن مقصوده تحريا أكسب البيت الأستواء والاطراد وتأمل كيف عبر

بالشوق حيث يدس العابثون والمقلدون اقوى الألفاظ وأشدها من غير حساب كالجوى والصدى والحنين والنزاع وغيرها مما لم يكن يعجز الشريف عن حشره فى البيت لو كان مثلهم فساد ذوق وضعف طبع وسليقة .

ولست تأخذ من البيت أكثر من العبارة عن الاعجاب وهو من أخف مراتب الحب واولها ولا أكثر من الرغبة المعتدلة لا الجامحة ومن اشتهائه التقبيل اشتهاء لا ينبو مع ذلك فى زمام الارادة فالتناسب تام بين أنواع المعانى والاحساسات المتنوعة التى ضمنها البيت ـ من اعجاب واحتشام واشتهاء والتشاكل كامل والاستواء بالغ الغاية ، دع عنك عذوبة التعبير عن القبلة وسلامة الذوق وحسن المعنى فى الكناية عنها بأنها رسالة لا تبلغ الا للفم ومراعاة ذلك وامتناعه عن ذكرها عن بعد .

واذا أردت أن تعرف الفرق بين حلاوة الطبع وافساد التصنع فقارن قصيدة الشريف الرضى التى يقول فى مطلعها :

يا ليلة السفح الا عدت ثانية سقى زمانك هطال من الديم

بقصيدة الطغرائى التى احتذاه فيها وترسم مواقع اقدامه وليس يسعنا ايراد القصيدتين ولكنا نجتزىء بذكر البيت من قصيدة الشريف ونعقبه بما قال الطغرائى مجاراة له . يقول الشريف :

قدرت منها بلا رقيب ولا حذر
على الذى نام عن ليلى ولم انم

فيأخذه الطغرائى ويحرج صاحبيه أن كان لهما وجود :

يا صاحبى اعينانى على كلفى
بمن تناوم عن ليلى ولم انم

ويقول الشريف يصف ليلته معها :

وامست الريح كالغيرى تجاذبنا
على الكثيب فضول الربط واللمم

يشي بنـا الطيب احيـانا وآونة

يضيئنا البرق مجتازا على اضـم

فيسطو عليه الطغرائى ويصوغهما فى اربعة ابيات مرذولة :

بتنا وبات الصبا وهنا يغازلنـا وفرشنا الرمل وشته يدالديم

والليل يكتم سرى والصبا كلف بنشر ما كاد تطـويه يد الظلم

يانفحة الريح باتت بين ارحلنـا بالجزع تسلك بين العذر واللمم

نهبت طيبا واغريت الوشاة بنا ياحبذا انت لو لم تقتدى بهم

ويقول الشريف :

واكتم الصبح عنهـا وهى غافـلة

حتى تـكلم عصـفور على علم

فيضمه الطغرائى فى هذا البيت المنحوس :

وغاب عنا غراب البين ليلتنـا فناب عنه عصيفير على عـلم

ويقول الشريف :

يولع الطل بردينا وقد نسمت رويحة الفجر بين الضال والسلم

فيمسخه الطغرائى هكذا :

وآذنتنا بقرب الفجر ناشئة باتت تحرش بين الضال والسلم

ويقول الشريف :

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من فرع الى قدم

فيأبى الا أن يعف عفته ويجيء بهذا البيت المنثور السخيف :

ورق لى قلبه القاسى ومكننى ممـا اريد فلم آثم ولم الم

ويقول الشريف فى غير هذه القصيدة :

انت النعيم لقلبى والعـذاب له فما امرك فى قلبى واحـلاك

فلا يرى الطغرائى أن يتركه فى قصيدته دون مسخ :

طاب الهوى فى الجـوى حتى انست به

فهـو المـرارة يحلو طعمها بفمى

فيخلط ويحسب الشريف الى هذا قصد . ويقول الشريف :

ولا استجد فؤادى فى الزمان هـوى

الا ذكرت هـوى ايامنـا القـدم

والذكرى طبيعية ولكن فساد ذوق المقلد الطغرائى يأبى له الوقوف عند حد الطبيعة :

تريد أن استجد الحب بعدهم والحب وقف على احبابنا القدم

الخ الخ

وشتان بين كل بيت ونظيره .

كلام الشريف مستقيم المعنى والاداء وأبيات الطغرائى لا يسيغها المرء الا بعناء . والفرق بين الكلامين أوضح من أن يحتاج الى جلاء . ولعل القارىء قد رأى مما أوردنا أن الحلاوة لا تتفق مع العبث والتكلف ولا مع اضطرام العاطفة ووقدتها .

* * *

ولست بواجد شيئا من هذه الحلاوة فى كلام المنفلوطى سواء فى ذلك شعره ونثره لأنه متكلف متعمل يتصنع العاطفة كما يتصنع العبارة عنها وقد اسلفنا أن وصف أسلوبه بالنعومة أقرب الى الصواب ولكنه ليس كل الصواب لأنه متجاوز ذلك ذاهب الى أدنى منه وليس أدنى من ذلك الا الانوثة وهى أحط وأضر ما يصيب الادب ولكنها مع الأسف تجوز على فريق من الناس يتلذذونها ويسيغونها ويعجبون بها ويبلغ من استحسانهم اياها أن يشجعوه ويغروه بالكد فى ابراز ما ليس أقتل منه للرجولة ولا أعصف .

قال المنفلوطى فى مقدمة عبراته :

« الاشقياء فى الدنيا كثير ، وليس فى استطاعة بائس مثلى أن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم هذه العبرات علهم يجدون فى بكائى عليهم تعزية وسلوى » .

وأحسبه توقع أن يكبر الناس منه هذه الرحمة ويعجبوا بهذا القلب الذى شغل عن مطالب الحياة بالدق عطفا على المساكين أمثاله . ولو شاء لقال ان الناس جميعا كذلك ان كان يريد أن يذهب الى هذا المعنى لأن كل امرىء طالب محروم . ولكن وظيفة المرء فى

الحيـاة ليست ان يكون ندابة فما لهذا خلق بل وظيفتـه ان يغالب قوى الطبيعة ويصارعها لأن الأصل فى الحياة هو هذا الصراع وتلك المغالبة وهى قائمة على ذلك ولا سبيل اليها بدونه ، بل هى تنتفى اذا امتنع وبطل .

وهذا شيء يعرفه كل احد ويحسه كل حي . وقد فطن اليه الأقدمون البسطاء الذين كانت تنقصهم وسائل الاستدلال العلمى على ذلك واثباته فى مظاهره ومن آيات هذه الفطنة ـ فطنة عميقة مستولية على النفس ـ انهم قالوا ان فى الوجود قوتين متنازعتين ابدا وقوة الشر التى تطغى بالليل وتجلل فى الرعد وتقذف بالصواعق وتبتلى بالجدب والمحل والاوباء والارزاء والفناء وما يدخل فى ذلك ويتفرع منه ، وقوة الخير التى تسح بالغيث وتفيض نور الشمس وحرارتها وتجود بالخصب والحياة الى آخر هذه المعانى وقد رمز الفرس للأولى وللثانية بأرمز .

ومثل هذا واضح فى جميع الأديان وان تغيرت الأسماء وتبدلت النعوت وما ابليس ان فكرت الا اسم آخر لاهرمان والارمز لقـوة الشر الخارجة على قوة الخير المغالبة لها .

بل ذلك ملحوظ فى خرافات العجائز وقصصهن حتى لعهدنا هذا وفى أوهام العامة التى تعزو الامراض الى فعل الشياطين وفى خوف الاطفال من الظلام وفزعهم من الوحدة فيه وتهيبهم السير فى دياجيه . ولماذا يفزع الفازع من الظلمة ويتهيب القفار والغـاب والدور المهجورة والخرائب والمقابر ؟ اليس هذا اثرا من الاعتقاد الأول بأن هذه مظاهر قوة الشر كما كان يفهمها القدماء ؟ فالحيـاة مبنية على المغالبة ولكن هذا الذى يحسـه الأطفال والعامة والذى فطن اليه الاقدمون السذج بغرائزهم وفطرهم السليمة لا يدركه المنفلوطى المسكين الذى يحسب أن ليس له من عمل فى الدنيا الا البكاء على الأشقياء كأنما خلق الرجل أضعف من الدودة الجوالة فى جوف الثرى .

وعسى قائل يقول : ان هذا منه فرط حب للانسانية وهى فضيلة لا يقبلها رذيلة أن صاحبها بالغ وغلا فى الامر لانه انما يغرق فى النزع ليبعد المرمى ويجاوز القصد فى التصوير ليكون أبلغ فى التأثير ويتناهى فى الدعوى استندناء للغاية القصوى .

هكذا يصنعون اذا ارادوا التضليل أو الاعتذار لانفسهم من الانخداع بمثل هذا التدجيل وهو شعب من القول يحتاج الى كلام تدخل فيه مسائل قد يقطع استقصاؤها عن الغرض لأن الانتصاف منها لا يتأتى الا باستعانة العقل والعلم عليها . ولكن لا بأس علينا من ذلك فلننظر ما معنى قولهم هذا اذا ترجمناه الى لغة العلم ونظرنا اليه فى ضوء الاستقراء الحديث .

ما هى اخلاق المنفلوطى ؟ هى بالفاظه ـ أو ان جادل فيما ارتضى ان يوصف به من الالفاظ ـ انقباض عن الناس ووحشة ـ عفة حتى عن مد يده الى أبويه ـ كرم فى الخلق طالما كان سببا فى وصول الاذى اليه ـ حلم يظنه الظان عجزا وضعفا ـ صمت طويل يحسبه الناظر عيا ـ ما رؤى يوما من الأيام ملما بما يفسد عليه دينه أو مروءته صبر على ما يذهب بلب الحكيم ويطير رشد الحليم(١) مات له طفلان فى أسبوع واحد فسكن لهذا الحادث سكونا لا تخالطه زفرة ولا تمازجه دمعة على شدة تهالكه وجدا عليهما ـ وليس احقر فى نظره من المادحين له ولا أصغر فى نفسه من انتقاد المنتقدين عليه ـ لو أن الناس جميعا اجمعوا على انتقاد خلة من خلاله لما ثناه ذلك عنها ولو أنهم اتفقوا على رأى مناقض لرأيه لما نال ذلك من عقيدته ليس ابغض اليه من الكذب ـ يحب حتى العتاب المر والتقريع المؤلم ما دام المتكلم صادقا ـ يطلب من الناس غير ما يطلب بعضهم من بعض ـ ان كان فى اخلاقه مأخذ ففى هذا الخلق خلق النفرة من

---

(١) قال لسنج الشاعر الناقد الالمانى « من لا يفقد عقله امام بعض الحوادث فليس له عقل يفقده » .

الناس والعجز عن احتمالهم ولبسهم على سوءاتهم — وطنى يتهالك وجدا فى حب وطنه ويذرى الدمع حزنا عليه .. الخ .

ولا تنسى انه جرىء جراة معدومة النظير فى التقحم على حياء الناس بهذه النعوت الغالية وانه محب مفرط الحب للانسانية — فيلانثروبست — وان اسرته مشهورة بالتقوى وان ابناءه يموتون فى غير السن التى يكون فيها الاهمال والجهل سبب الوفاة المباشر فى الاغلب والاعم .

* * *

فكيف تصف هذه الاخلاق ايها القارىء ؟ اما ان تكون مصدقها فننظر فى دلالتها أو مكذبها فيكون حسبنا ذلك منك رايا لك .

اخلاق نادرة ؟ نعم ليس أندر منها مجتمعة وان اتفقت للناس متفرقة ! ولكن الامر أكبر من ذلك وأبعد مدى وأعمق . هاك دلالة هذه الأخلاق الرائعة النادرة فى نظر الدكتور نسبت قال :

« ولما كانت التقوى فى الأغلب من أعراض الحالة التشنجية وكان الغرور وكثير من الخصائص البسيطة أو المركبة توجد فى حالة غير عادية من النمو اذا كان الجهاز العصبى غير سليم فليس من المدهش أن يكون البخل من أعضاء ما يسميه (فيرى) أسرة الأمراض العصبية . وحب الانسانية — فيلانتروبى — نفسه مما يجرى هذا المجرى وقد كان (هوارد) مصلح السجون جبارا فى بيته وكان له ابن مجنون . ومثل هذا يقال عن الانانية أيضا وشرح هذه الحقائق فيما أسلفنا عليه القول على الارادة . وذلك أن بعض مراكز المخ — واحدا أو اكثر — تكون قاصرة عن تلقى المؤثرات أو الاجابة عليها فتسود فى حيز الأدراك طوائف معينة من الآراء أو تصير الغلبة لنزعات معينة مستقلة عن الادراك . وهناك قوم — كما يقول المثل — لا يصغون الى داعى العقل ولا يحسون الا انفسهم ومصالحهم . وآخرون يبلغ من تضحيتهم بالنفس وانكارهم الذات أن يخرجوا —

بغير مبرر معقول – عن كل متعهم وكل ما ملكت أيمانهم لفـائدة جيرانهم مثلا . وكلا الفريقين من مرضى الاعصاب كالممودين او المصابين بالتشنج . ويقال على العموم ان الاعتقادات الحادة القوية تصاحب الضعف أو المرض أو الاضطراب العصبى وعلى العكس من ذلك ترى الموفور الصحـة متسامحا بالضرورة متعـدد جوانب الرأى » .

فما قول المحتج للمنفلوطى فى هذه الكلمة التى كانما كتبهـا صاحبها لما نحن فى صدده وأيهما خير فيما يرى لصاحبه ؟ ان تؤمن بصدقه فيما نحل نفسه من الصفات النادرة والخلال الغريبة فيلزمه حكم الدكتور نسبت ويدخل حظيرة المرضى والمبتلين فى اعصابهم أم نقول كذب فيما ادعاه لنفسه وأن ما به ليس ايثاراً وحبا للانسانية متجاوزاً به حدود القصد والاعتدال بل أنوثة يتوخاها فى الكتابة وتكلف بين وتصنع لكل عاطفة وتدجيل على الناس ومخادعة لهم واستصغار لأحلامهم واستهانة بعقولهم ؟

لسنا نتشبث بأحد الحكمين فليختر القـارىء لهذا الكاتب أخفهما وأهونهما فى رأيه فسواء لدينا هذا وذاك والنتيجـة بعـد واحدة .

« الأشقياء فى الدنيا كثير وليس فى استطاعة بائس مثلى آن يمحو شيئا من بؤسهم وشقائهم » .

سوداء ما أشدها وظلمة يأس ما احلكها واحساس بالعجز المطلق والقصور التا . وما أبعد هذا عن الكآبة الطبيعية المعقولة التى تغشى النفس أحيانا ويكون مردها الى ما يلقاه المرء من الخطوب فى حياته او فى علاقاته مع أسرته او بيئته وأوساطه والتى لا تمنع ان يكون الانسان موفور النشاط والمراح صحيح النظر الى الأمور صادق الوزن لاقدارها . نعم من الطبيعى أن يكتئب مثلا من يحتسب طفلا له كان يشيم الخير من لمحاته ويانس الرشد من سماته او من يرى نفسه منبوذا من الناس لفقره أو ضعة قومية فى أبيه او من

يمنى بالفشل فى بعض ما يعالج أو نحو ذلك ولكن هـذه السوداء اليائسة التى تصور لصاحبها الحياة كانها مستشفى عجزة ودار ايامى ومفجعين ينقطع للبكاء عليهم ــ اى تعليل لها من الأحوال التى تكتنفه هو أو سـواه ؟ وأى باعث عليها غير عـدم التلاؤم بين المرء والبيئة ؟

خذ مثلا لذلك مفتاحا وقفلا تعالج أن تفتح هذا بذاك فتفشـل ولا يخرج الامر عن ثلاثة احتمالات فاما أن يكون العيب فى المفتاح كأن يكون مكسورا أو أن تكون انبوبته مسدودة أو ان تكون أسنانه بالية واما ان يكون الذنب ذنب القفل كأن يكون لسانه قد سقط فى جوفه أو ان يكون شيء فيه خرج عن موضعه وعاقه عن العمل أو أن يكون الصدأ عطله وانت فى كلا الاحتمالين لا تستطيع أن تفتح القفل ولكن هناك احتمالا ثالثا وهو أن تنحرف بأنبوبة المفتاح عن حديدة القفل أو أن تديره فيه مقلوبا أو أن لا تبلغ بأسنانه اللسان ولا يكون العيب فى هذه المرة راجعا الى القفل أو المفتاح بل الى الخطأ فى عملية الفتح .

اهبنى غضبت . فالأمر فى هذه الحالة لا يعدو احد فرضين : أن يثير غضبى رجل مثلا بعمل مسيىء فاذا كان احساسى مناسبا لدرجة الاساءة ومتكافئا معها كان ذلك منى طبيعيا ولكن لنفرض أن الامر جاوز المعقول وان الغضب هاجه ما ليس فيه اسـاءة وهو الفرض الآخر فنعود الى مثال المفتاح والقفل ونقول اما ان تكون الظواهر الخداعة أو الأنباء الكاذبة قد حملتنى على اعتقاد القصد الى الاساءة وتعمد الايذاء فيثير فى نفسى ما يحيط بى مثل ما يثيره الايذاء لو كان واقعا ويكون عدم التلاؤم بين الاحساس والعمل راجعا الى الوسط والعيب عيب القفل ــ أو يكون العمل فى ذاته غير مقصود به الا الخير كأن يرتب لك خادمك أوراقك فى غيابك ولكنك لما لقيت فى يومك من النصب أو لعسر هضم تعانيه تخرج عن طورك ويبلغ غضبك مبالغا لا يتناسب مع الظروف ــ أى لا يلائمها وفى هذه الحالة يكون عدم التناسب بين الاحساس والظروف مرجعه الى

علة فيك والعيب عيب المفتــاح اذ كان قـــد هاجك مالا يهيج فاذا اصبحت فى اليوم التالى وقد سرى عنك وسكنت نفسك وهدأ ثائرك وبدالك تهورك فقد أعدت التوازن بين الاحساس والحادثة ولكن اذا ظل غضبك فى الصباح كما كان فى المساء وطردت الخادم فان المسألة تخرج عن كونها عدم تناسب بين الاحساس والحادثة وتصبح عجزا عن اعادة التوازن بينهما يدل على ان « عملية » الموازنة أو الملاءمة مضطربة .

وهذان المثلان ينطبقان على عدم التلاؤم بين المرء والبيئة على العموم فقد يكون انتفاء ذلك راجعا الى علة عضوية أو الى أن للبيئة احوالا ليس لها المرء بكفاء أو هو يجهلها أو لا يعرفها معرفتها وفى كلتا هاتين الحالتين يكون العيب فى القفل أو المفتاح ولكن اذا كانت البيئة ليس فيها من الأحوال الا ما يستطيع أن يكافحه الرجل العادى وكان المرء قادرا على الوجهة الجسمية ولكنه يعجز مع هذا أن يلائم بين نفسه وبينها فان الفشل فى هذه الحالة لا يكون مرجعه الى عدم كفاية أو عيب فى هذا العامل أو ذاك بل الى فساد عملية الملاءمة ذاتها ومعنى ذلك ومدلوله يعرفهما كل طبيب وهذا الفساد تصحبه أبدا ثلاثة مظاهر : اضطراب الأجهزة العصبية والاضطراب فى السلوك والاضطراب فى الادراك ويدخل فى هذا ما يعتور الفكر والاحساس والشعور بالذات وبعلاقة المرء بالوسط وهى أشــياء على أوضح ما تكون فى قصص المنفلوطى كما سترى فيما يلى .

العبرات «قصة اليتيم»

ونعود بعد هذا الايضاح الى ما كنا بدأناه من الكلام على عبراته فنقول انهـا على نوعين : منها طائفة مترجمة عن امثلة الضعفاء الذاهبين مذهب التصنع والافراط فى الرقة والأنوثة والباقى موضوع وهو فى كليهما ملفق مستحيل التلفيقات ــ حتى فيما هو مترجم منها يأبى له ذهنه المنتكس الا ان يغير ويبدل تبديلا كبيرا الدلالة .

وقد قرأت له هذه العبرات فوجدته فى كل قصة تقريبا بينما هو جالس فى مكتبه الذى كأنما صار ملتقى كل صوت ولاقط كل نبرة وموجة اثيرية اذا به يسمع انينا أو حنينا أو صوتا خافتا أو توجعا أو زفيرا أو نهيقا أو شيئا من هذا القبيل فيطل من نافذته السحرية فيرى فتى فيما شاءت له تلفيقات أوهامه ومنكرات أحلامه ــ من العمر ملقى يتوجع على سريرا أو حصير فيذهب اليه ولا يزال به حتى يقص عليه أمره ويروى له خبره ويكشف له عن مظاهر أنوثته ثم يموت الفتى ــ وهو ما لابد منه فى كل حكايات المنفلوطى فما أعظم شؤمه على أبطاله ــ فيغسله ويلفه فى الاكفان ويحمله الى قبر يدفنه فيه وينثر عليه دمعة من دموعه ألتى كأنما لها « زر » فى تضاعيف ثيابه يضغط عليه فتنحدر وتسيل وان كان لم يبك على طفليه اللذين ماتا فى اسبوع واحد !!

فبالله ما لهذا الحانوتى الندابة وللأدب الذى هو حياة الأمم وباعث القوة فيها ونافث الحرارة فى عروقهـا وحافزها الى أجل المساعى ؟ لقد كان المنفلوطى يستطيع ان يتعظ بمصير ابطاله المخنثين ــ ان جاز الجمع بين النعتين ــ وبموتهم فى شرخ الشباب وميعة العمر وكان فى وسـع قـرائه ان يعتبروا بهم لولا سقم اذواقهـم ومرض نفوسـهم ولكن لكل كاتب قراءا على شاكلته منسوجين على منواله وان أخوف ما نخاف على هـذه الأمـة ان تجد هذه الجرائيم ترى صالحا فى نفوسها فى وقت هى أحوج ما تكون فيه الى من يبذر فيها بذور القوة ويدفعها الى تطلب الحياة العالية .

كتب جيته الشاعر الالمانى رواية « احزان فرتر » وهو فى التاسعة عشرة من عمره اى قبل ان ينضـج ويستكمل الرجولة فراجت واشتهر امرها وانتشر بها الصيت الى كل ركن وذهب بها السمع فى كل زاوية فى العالم الغربى ونقلت الى جميع اللغات الحية ولكن واضعها الذى كان حقيقا ان يزهى بهذا النجاح وان يفتتن بما وفقت اليه باكورة اعماله من الذيوع واستفاضة الذكر وان يغريه ذلك بالمضى فى هذا السبيل وبتقليد نفسه مرة ثانية وثالثة ــ ظل الى ان مات لا يندم على شىء ندمه على وضع هذه الرواية ولا يخجل من عمل له خجله منها حتى لقد تمنى لو استطاع ان يجمع كل نسخها من ايدى الملايين من قرائها ليوكل بها النار !!

ولماذا كان يخجل منها ويشعر انها وصمة لرجولته ؟؟ لأن فرتر بطلها انتحر من اجل خيبة فى ميدان لهو وغرام ! والحياة اجل من ان يقطع المرء حبلها لخيبة امل كائنا ما كان او ان شئت فقل هى اهون من ان يكبر المرء امر سعودها ونحوسها الى هذا الحد . وأن مما يصم الرجولة ولا شك أن لا يكون صحيح الادارك للأمور وأن لا يستطيع ان يلابس الحياة ملابسة قوامها حفظ التوازن بينه وبين الوسط .

فأين تخنث العبرات من هذه الرجولة الضخمة التي تقلو واجب الحياة وتعرف فرائضها ولا تفر منها ؟ رجولة لا تقول في الدنيا اشقياء كثيرون فلأبك عليهم ولا ندب سوء حظهم ونحس طالعهم ولانعهم الى الناس بل تقول الحياة طلوع ثنايا ومصارعة منايا والناس كلهم ساعون فمن مخطيء ومصيب وناهض وكاب عاثر وناجح موفق وخائب مجهود وكلهم يقضى حق الحياة عليه ولا يمطلها دينها بل يؤديه اليها من دمه وقوته وعمره وهو مشكور ان أفلح ومعذور ان اخفق

جيته ـ تلك الصخرة القائمة فى لج الحياة تناطحها كل موجة وتلطمها كل ريح وهى وطيدة لا تلين ولا تساقط على الصدمات والأهوال ـ هو مثال الرجل الخليق بالحياة ، هو البطل الذى قرت عنده ثورة « كارليل » الهائج فى ميادين الفكر لا يعرف السكون ولا يذوق طعمه الا بالتمنى حتى لم يسعه لما ترجم احدى روايات جيته إلا ان يخضع للجامه ويستفيد لعنانه والا ان يخرج عن طبيعته ـ ان صح هذا التعبير ـ وينسى جموحه مع المعانى وركضه فى حلبة متوعرة من الأداء فجاء أسلوبه فيها سلسا كالماء الرقراق المتحدر فى سهل دمث من الأرض .

ولعمرى ما ابعد البون بين أدب تمليه الحياة المتدفقة وصحة الادارك وبين كتابة ميتة مملوءة صديدا وبلى شائعا فيها كهذه العبرات والنظرات والسخافات والتلفيقات والمنكرات التى لا نعرف لها مثيلا فى كل عصور الأدب التى مرت بالأمم قاطبة من آرية وسامية !

خذ مثلا لذلك قصة « اليتيم » التي صدر بها عبراته وموضوعها أن فتى فى العشرين من عمره مات ابوه وتركه فقيرا لا يملك شيئا فكفله عمه وأكرمه واحسن اليه احسانه الى ابنته التى كانت فى مثل عمر الفتى فشبا عشيرى صفاء وخدنى مودة ووفاء ، ثم ذهب

العم الى جوار ربه بعد أن اوصى زوجته ان تكون للفتى الذى لا اسم له ولا أم ـ اما كما كان هو له أبا ولكن الزوجة لم تلبث أن تنكرت للفتى فزعمت أنها عزمت أن تزوج ابنتها ترى أن فى بقائها بجانبها ما يريبها عند خطيبها وانها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنا ذلك الجناح الذى يسكنه الفتى من القصر وأمرته أن يتحول الى منزل آخر يختاره لنفسه من بين منازلها تقوم له هى بشأنه وشأن نفقاته فيه فأكبر الفتى ذلك وعظم عليه الأمر وأسودت الدنيا فى عينيه لأنه يحب الفتاة حبا لا يعلم به أحد ولا الفتاة نفسها ، بل ولا هو نفسه الا فى هذه الساعة . فانسل من البيت ليلا وآثر ان يستشرد ثم سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزل المنفلوطى . ولكنه لم يستطع البقاء فيها ساعة واحدة فرحل رحلة طويلة قضى فيها بضعة اشهر لا يهبط بلدة حتى تنازعه نفسه الى اخرى ، ثم شعر بسكون فعاد الى الحجرة فلزمها هى ومدرسته ولم يبق من أثر لذلك العهد القديم الا نزوات تعاود قلبه من حين الى حين . ثم ان خادمته فى بيت عمه اهتدت اليه وحملت اليه كتابا من الفتاة تطلب اليه فيه أن يأتى ليودعها قبل موتها ، ولكنها ماتت قبل وصول الكتاب اليه فلحق بها ومات هو الآخر فدفنه المنفلوطى معها تنفيذا لوصيته .

هذا هو موضوع القصة . والآن فلنرجع أيها القارىء الى مثال القفل والمفتاح . ليس فى المفتاح عيب فان الفتى كان صحيح الجسم موفور العافية ليس به شىء من الآفات التى تقعد بالمرء عن ملابسة الحياة على الوجه الصحيح . فاذا كان الأمر على خلاف ذلك فالذنب للمنفلوطى الذى نسى أن يذكر لنا علله وأوصابه الجسدية . كذلك ليس فى القفل عيب . لأن الظروف المحيطة بالفتى والأحوال التى كانت تكتنفه ليس فيها ما يعجز الرجل العادى السليم عن مكافحته ولكى يقتنع القارىء بما نذهب اليه نجاوز الاجمال الى التفصيل .

ارادت امرأة عمه أن تزوج ابنتها وهى رغبة طبيعية تحسها

كل ام ولم تكن تعلم أن الفتى يحبها لأنه هو نفسه لم يكن يعلم ذلك ويدريه ومصداق هذا قول الفتى وهو يحدث المنفلوطى .

ولا اعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمى فى نفسى ودا واخاء او حب وغراما ، ولكنى أعلم انه ان كان حبا كان فقد بلا أمل أو رجاء فما قلت لها يوما اننى احبها لأنى كنت أضن بها وهى ابنة عمى ورفيقة صباى أن أكون اول فاتح لهذا الجرح الأليم فى قلبها ، ولا قدرت فى نفسى يوما من الأيام أن أصل أسباب حياتى بأسباب حياتها — ولا حاولت فى ساعة من الساعات أن أتسقط منها ما يطمع فى مثله المحبوب ولا فكرت يوما أن أستشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لا علم اى المنزلتين انزلها من قلبها منزلة الأخ فاقنع منها بذلك أو منزلة الحبيب فأستعين بارادتها على ارادة أبويها » .

فما ذنب امراة عمه اذا كان قد شاء أن لا يتكلم او يقدر او يتسقط او يستشف ما يستشفه كل محب ويتسقطه ويقدره ويقوله ؟ وهو يعلم ان لا لوم عليها فى جهلها ما لو كانت علمته لكان لها شأن آخر معه ، ولا يعقل ان يحسب المرء أن الناس اعرف منه بخبيئة نفسه .

اذن فليس فى رغبة امراة عمه أن تزوج ابنتها شىء يستدعى منه ما صنع . كذلك لم يكن يستوجب منه التشرد والانسلال تحت الدجى طلبها اليه أن يتحول الى منزل لها غير الذى يسكنه على أن تقوم له بنفقاته فيه حرصا على الفتاة ان يريبها شىء من وجوده الى جانبها عند خطيبها . فانه موقف معقول واحساس طبيعى . ولا شك أن فى هذا الطلب غضاضة . ولكن قليلا من التفكير بعد ليلة أو ليلتين كان خليقا ان يجعله يسيغها . فلماذا انسل وآثر الاستشراد والرحيل فى البلاد ، ثم لماذا بعد أن سكنت نفسه بلغ من وقع الخبر الذى حملته الخادمة اليه ان مات ! أليس الواضح البين انه عجز عن الملاءمة بين نفسه وبين هذه الأحوال والظروف عجزا ليس مرده لا الى آفة فى جسمه ولا الى الظروف !

وهذا بعد ليس فى شيء من الحب الطبيعى الذى يحس حامله بالغاية منه احساسا واضحا ويدركه أتم ادراك ، والذى لا يعتأ يتطلب التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع . لا كهذا المسكين الذى لا يدرى أهو يحب ابنة عمه حب الأخ لأخته أم حب الرجل للمراة . ولا يقدر فى نفسه أن يصل أسباب حياته بأسباب حياتها ولا يحاول أن يعرف ما عندها له أو يطلب منها ما يطلب كل محب . وهو كلام لا يرضى من قلبت الروايات الفاسدة عقولهم ومسخت طبائعهم ولا يروق من تعلموا من هذه القصص أن يعدوا الهوى العذرى الذى لا وجود له فى هذه الدنيا الدنية مثلا ليس أعلى منه للحياة — واللين الذائب والنحول والضنى من دلائل سمو النفس — والانقياد للمراة كالكرة فى يدها والقعود تحت حكم نظراتها وايماءاتها وحركات حاجبيها وشفتيها ويديها ورجليها من علامات الرجولة وآيات الفتوة والبطولة دع عنك الاضطرابات البهلوانية من جسمية وعقلية والزفرات والانات والدموع وتقليب الأكف والذهول والنحول والاصفرار والاطراق ونكت الأرض والكلام الذى لا يقوله ولا يفهمه عاقل والنظرات الشاردة البلهاء فى المجالس والمحافل وسهر الليل ورعى النجوم وضم المخادع ومعانقة السرير وتقبيل أطراف الأصابع للأشباح والخيالات وتحميل الرياح انواع السلامات والتحيات الطيبات المباركات ...

لا . لا يرضى هؤلاء كلامنا وان كان الحقيقة لأنهم لا يطلعون على الحياة الا من منظار المنكرات التى تصفها لهم هذه الروايات ولا يفكرون أو يحسون أو يعملون الا على مثال اشخاصها ولا غرابة فى ذلك فان من لا تؤهله تجاريبه أو معارفه لتصحيح خطأ الروائى لا يسعه الا أن يسلم بصدقه ويستمد رأيه فى الحياة من كتابته ويتخذ اشخاصه قدوة تحتذى وتقلد . وهى نتيجة يعلمها من له اقل المام بعلم النفس وبتأثير الايحاء لا سيما فى الضعفاء والشبان والنساء ومرضى الأعصاب .

واذكر على سبيل التمثيل لتاثير هذه القصص المنحوسة انى اعرف رجلا بلغ من استيلاء « سنكلر » وضروب احتياله على نفسه وهواه فى صدر ايامه ان ظل سنين وليس له غاية يطلبها سوى أن يكون على راس فرقة من « البوليس » السرى يطارد المجرمين . ذلك لأن هذه القصص الكاذبة الصور المستحيلة الوقائع تحدث الاضطراب فى نضوج الاحساسات الطبيعية فى نفوس الشبان واخصها الحب بتنبيهها مركز التوليد قبل الأوان وقبل أن يكون الباعث على الحب هو النضوج الجنسى فى الفرد .

أسلوب المنفلوطي

اما اسلوب المنفلوطي فى هذه القصة وفى سواها فاسلوب رجل لا يبالى من اى مدخل دخل على القارىء ما دام يقدر ان سيصل منه اليه ولا اى بلاء يهديه فى احتيـاله ويقحمه عليه واذ كان يعرف من نفسه التلفيق والتصنع فهو لا يزال يعالج الاقناع والتأثير بضروب من التأكيد والغـلو والتفصيل وغير ذلك مما ليس ادل منـه على الكذب والتزوير لما وقع فى وهمه من انه يكسب الكلام قوة وشـدة لا يفيدهما أن يلقيه ساذجا ويدعه غفلا واول ما يستوقف النظر فيه من هذا ولعه بالمفعول المطلق وتكلفه له لظنه انه من المحسنات اللازمة للصقل وان العبارات بدونه تكون مبتورة ، والجمل لا يجرى فيها النفس الى آخره دون توقف واعتراض . ومع ان قصة اليتيم فى تسع عشرة صفحة وبعض صفحة من الحرف الجليل فان فيهـا أكثر من ثلاثين مفعولا مطلقا ليس من بينها واحـد لا يكون الأسلوب اسلس واطبع بدونه . لكنه ذهب الى المبالغة فى كل شيء وآلى أن يجاوز كل حد معقول طلبا للتأثير من طريق الافحاش فى التاكيد فلم يكن له بد من هذا المفعول المطلق الذى لا يكاد يمر به القارىء فى اى كتاب يفتح من كتب الأدب .

ومعلوم أن الكلام لا قيمة له من اجل حروفه فان الألفاظ كلها سواء من حيث هى الفاظ ، وانما قيمته وفصاحته وبلاغته وتأثيره تكون من التأليف الذى تقع به المزية فى معنـاه لا من اجل جرسـه

وصداه ، والا لكان ينبغي ان لا يكون للجملة من النثر أو البيت من الشعر فضل مثلا على تفسير المفسر له . ومعلوم كذلك أن الالفاظ ليست الا واسطة للاداء فلابد أن يكون وراءها شيء ، وأن المرء يرتب المعاني أولا في نفسه ثم يحذو على ترتيبها الألفاظ وان كل زيادة في اللفظ لا تفيد زيادة مطلوبة في المعنى وفضلا معقولا فليست سوى هذيان يطلبه مسأ خد عن نفسه ، وغيب عن عقله ، وأبلغ من ضلال الراى ان راح يحسب انتاليف الألفاظ تاليفا طبيعيا مطردا خاليا من العكس والقلب منزها عن الحشو والحشر يذهب برونق الكلام ويفقده المزية والتأثير . وينسى المسكين ان كان كلمة يستطيع القارىء أن يسقطها بدون خسارة في المعنى أو تعويق لتحدر الاحساسات أو افقار لغناها ــ كل لفظة يمكن الاستغناء عنها قاتلة للكاتب ، فان العالم اغنى في باب الأدب من أن يحتمل هذا الحشو ويصبر عليه وليس شيء أحق بأن يثير عقل العاقل من عدم اكتراث الكاتب لوقته ومجهوده وكم من كاتب أضربه هذا الداء وآخر ضئيل الشأن والحال لم يحيه من المزايا غير حبك الأداء ، ولكن هذا كلام لا يفهمه المنفلوطي لان اللغة عنده ليست الا زينة يعرضها وحلى يخيل بها لا اداة لنقل معنى أو تصوير احساس أو رسم فكرة . ومن اين له ان ينزل اللغة هذه المنزلة وهو لا معنى في صدره ولا فكرة في ذهنه .

وهذه امثلة للمفعول المطلق في كتابة المنفلوطي وكلها لا ضرورة اليها ولا داعي الا من الرغبة في تأكيد الغلو الذى يتطلبه من يحمل نفسه على التلفيق والتصنع أو ما يجرى هذا المجرى من الأغراض الاخرى .

١ ــ وقلت لابد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس قريحة معذبة تذوب بين اضلاعه (ذوبا) .

٢ ــ فيتهافت لها جسمه (تهافت) الخباء المقوض .

٣ – ثم لم ازل اراه .... أو منطويا على نفسه فى فراشه يئن (انين) الوالهة التكلى .
٤ – واتمنى لو استطعت ان اداخله (مداخلة) الصديق الصديقة .
٥ – وقد بلغ الأمر (مبلغ) الجد .
٦ – وقد سمعتك الليلة تعالج نفسك (علاجا) شديدا .
٧ – فشعرت براسه يلتهب (التهابا) .
٨ – واذا قميص فضفاض من الجلد يموج فيه بدنه (موجا) – يصف نحوله .
٩ – فاستفاق قليلا ونظر الى (نظرة) عذبة .
١٠ – فتنهد طويلا ونظر الى (نظرة) دامعة .
١١ – اصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك .
١٢ – فأنزلنى من نفسه (منزلة) لم ينزلها أحد من قبلى .
١٣ – ١٥ – فعنى بى (عنايته) بها وأرسلنا الى المدرسة فى يوم واحد فأنست بها (آنس) الأخ باخته واحببتها (حبا) شديدا .
١٦ – ولقد عقد الود بين قلبى وقلبها (عقدا) لا يحله الا ريب المنون .
١٧ – فتشرق لها نفسانا (اشراق) الراح فى كأسها .
١٨ – ثم انسللت من المنزل (انسلالا) من حيث لا يشعر أحد .
١٩ – وهكذا فارقت المنزل ... (فراق) آدم جنته .
٢٠ – فرحلت (رحلة) طويلة .
٢١ – هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه الى حيث لا أعلم له مكانا ثم دارت بى الأرض الفضاء – يعنى غرفته – (دورة) سقطت على اثرها فى مكانى .

٢٢ - فحزنت عليها (حزن) الثاكل على ولدها .

٢٣ - وما وصل من حديثه الى هذا الحد حتى زفر (زفرة) خلت ان كبده قد ارفضت .

٢٤ - وان الضربة التى اصابته قد سحقته (سحقا) .

٢٥ - ٢٦ - اشعر براسي يحترف (احترافا) وبقلبى يذوب (ذوبا) .

٢٧ - ثم انتفض (انتفاضة) خرجت نفسه فيها الخ .

وقد عددنا له الى الآن ٥٧٢ مفعولا مطلقا ولا ندرى الى اى رقم يرتفع العدد اذا استقصينا وانما حملنا على تجشيم انفسنا هذا الحساب غرابة هذا الكلف منه بصيغة المفعول المطلق . ولنعرف هل الشأن واحد فى كل كتابه أم هو اتفاق ومصادفة فى هذه القصة وحدها فاذا به قد استعمل هذه الصيغة أكثر مما استعملها العرب جميعا !

ولعل القارىء لاحظ فيما أوردنا من الأمثلة كثرة النعوت والاحوال كقوله « خرجت منه - يعنى المنزل - شريدا طريدا حائرا ملتاعا » وقوله : « تركنى فقيرا معدما لا املك من متاع الدنيا شيئا » وقوله وراء هذا المنظر الضارع الشاحب نفس « قريحة معذبة » وقد يعلم القارىء أو لا يعلم أن هذا الاسراف فى النعوت من دلائل الضعف وفقر الذهن لأن الكاتب انما يرصها واحدا بعد واحد وفى مرجوه أن يوافق واحد منها محله وأن يقع فى مكانه ولكن المطبوع يعرف ماذا يأخذ وما يلقى وينبذ وانما كان هذا الاكثار من الصفات من علامات الوهن لأن الكاتب الضعيف لا يستطيع أن يتحرى الدقة اذ كان لا يدرى أى الرموز اللفظية اكفل بالعبارة النامة عن المعنى المراد فهو من أجل هذا يستعمل اللغة جزافا ويكيل الألفاظ بلا حساب مستعينا على الاختيار بالارتباط الغامض بين الألفاظ فى ذاكرته وبرنين الأصداء المتقطعة للأصوات المألوفة . وهناك أمر آخر

وهو أن الترادف فى اللغة من الاكاذيب الشائعة اذ ليس ثم فىالحقيقة لفظان يؤديان معنى واحدا علىوجه الضبط . وما منمترادفين يزعم الزاعمون انهما سواء فى المدلول الا وبينهما مقدار من الاختلاف قل او كثر ، فاذا ساق اليك كاتب سلسلة نعوتمتقاربة المعانىمتشابهة المدلول كان لنا ان نسأل ايهـا يعنى على التحقيق واى مدلولاتهـا المتفاوتة يقصد اليه ويريد منـا فى فهم المراد او تكوين الصورة ان نعتمد عليـه ؟ لأن السرد لا يستقر به معنى على حـد ولا يعين على التصور اجراء الوصف على كثرة الاسناد والعد والشأن فى هذا مثله فى التصوير والرسم فكما ان المعول فيهما ليس على كثرة الالوان بل على أصابتها مواضعهـا ووقوعها مواقعهـا قلت او كثرت وصحة التأليف بينها كذلك فى الكتابة ليست العبرة بتعـدد النعوت ولكن بمبلغ ابانتها عن المراد وكشفها عن المقصود .

أترى سيسمعنا السخفاء وأشباههم ممن يعرفون من ناحية وينكرون من ناحيـة أن هذا ليس سوى غنى وكثرة محفوظ ؟ نعم وماذا عساهم لا يقولون ، وبأى حمـاقة وضلال لا يتعلقون ؟ ولكن ههنا أصلا يفوتهم العلم به ويخطئهم التوفيق اليه وان كان على هذا لا يحتاج الا الى أيسر فكرة وادنى نظرة وهو ان اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا شيء فى ذاته ولا معنى له فى نفسـه ولكن يكون المعنى وتحصل الفائدة بالتأليف وبضم الألفاظ بعضهـا الى بعض كاللون فى ذاته لا يفيدك صورة ولا يعطيك شيئا الا بعد أن يأتلف مع سواه ويجرى كل الى اخيه مجراه وليس لغير ذلك مسـاغ فى العقل او مجـاز الى الفـكر وقيام فى النفوس فلا كتابة حتى يكون معنى هو المزجى لها والمقدم والمؤخر والمرتب فيها وفى جعلها موافقة أو مخالفة ومصيبة أو مخطئه وحسنة او قبيحة سخيفة ، والا فأن أحـدنا لا يعجزه أن يعمد الى معجم او كتاب مترادف فيأخـذ منه ويسرد وليست كثرة الألفاظ المستعملة المسوقة من شانها أن تدل على كثرة الاطلاع وسـعة الحظيرة وطول الباع وانمـا التأليف والتركيب والافتنان بهما والقدرة عليهما هى آية هذه السعة والطول والكثرة

فلا تجعل بالك الى الالفاظ اذا شئت أن تعرف مكان الرجل من العلم وحظه من العرفان ، ولكن اجعله الى طريقة تأليفه الكلام فان رايته يدور منها فى حلقة لا يكاد يعدوها حتى يكر اليها فاعلم انه ضيق المضطرب محدود المجال ، ضئيل الحال ، والق بعد ذلك الفاظه من اى حالق شئت .

وكذلك المنفلوطى لا يكاد يفوتك أن تقرأ له هذا التركيب : « فعدت به حزينا منكسرا وما على وجه الأرض أحد اذل منى ولا اشقى » — « ومارئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكيا » أو هذا التأليف « فما هو ان مرت أيام الحداد حتى رايت وجوها غير الوجوه » — « وما هى الا أيام قلائل حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته » ونحن فانما نمثل ولا نستقصى ولو كان الرجل واسع الحيلة رحيب المصال لوجد له مخرجا من هذه الدوائر — والالفاظ كالحجارة فى محاجرها قريبة المنال من كل طالب والناس لو عقلوا من أمرها فى راحة وانما الكتابة مجسها الحصافة والتثبت فى انتقاء الالفاظ واستشهاد القريحة وسبر النفس وفليها عند تأليفها والمزاوجة بينها .

فاذا تقرر هذا وان المنفلوطى ذاهب مذهب التخنث فى كتابته وملفق مستحيل التلفيقات ، وانه لا يزال يعالج التأثير بالتطرى والرخاوة فى العاطفة المتكلفة والاحساس المصطنع وبالغلو والتأكيد فى صوغ الكلام وتصوير المسألة فان بنا بعد هذا أن ننظر كيف يسوق القصة اى فى الاسلوب بمعنى الطرّيقة التى يجرى عليها فى تناول الموضوع وعرضه .

وقد الف الناس لطول عهدهم بالمقلدين أن ينظروا الى الاسلوب من حيث هو تأليف للكلام على معانى النحو ونحن نريد أن نلقى على هذه القردة درسا فيما يفيده صحة النظر واعتدال ميزان العقل وسعة افق الفكر ..وانا لنعلم انه لن يفيدهم الا الحسرة على ما اضاعوا من العمر وجنوا من السوء والخبث فى هذه الأمة التى نكبت بهم على

قدر سدر اعينهم وضلال افهامهم ، ولكنا ماقصدنا قط الى امالتهم عما هم فيـه وان كانت الخـزائم حاضرة بل تبصير من له طبع من الشيء اذا قدحته ورى وهدى من له قلب اذا اريته رأى .

ونمهد لما نريد تبيينه بمثل من التصوير محسوس فان هنا قوما لا يدركون الشيء أو يصدمهم فنقول ان ههنا فى ناحيـة من الطريق شرطيا واقفا يرقب الحركة ويلاحظ العادين والرائحين والراكبين والراجلين ويمنع الزحام ويقتاد المتنزين الى الشر الى أى هو تابع له من « الاقسام » تراه وتزن التبعة التى عليه والسـلطان الذى فى يديه وتقيس النصب الذى ينبغى أن يعانيه الى القدرة اللازمة التى لا تؤاتيه فتعطف عليه فى محنته وترثى له فى وقفته وتصوره وأنت ناظر اليه من جانب الجد الذى لا هزل فيه وفى ضوء الواجب مكابدا اوامره ونواهيه ــ هذا وربما ذهبت تعتبره مرة اخرى من الجانب المضحك فى هيئته وفى تراخى همته وبطء حركته او عـدم التـلاؤم والتناسب فى بزته ووفاء قامته وتخاذله فى مشيته وتثاوبه واستناده الى الجدران وذهول نظرته أو حواره مع الباعة وتأتيه الى غايتـه وتقطيبه جبينه وهو يدفع فى جذبتـه أو تواريه فى الدروب ووراء العمد اذا جد الجد بالطعام فى « نقطته » الى آخر ذلك . ثم تصوره صورة تركبـه فيها بالدعابة فأنت قـد تناولت موضوعه من جهتين متباينتين اذ كنت قد نظرت الى أمره وحاله نظرتين مختلفتين كنت فى الأولى جادا وفى الأخرى هازلا وجعلت الصورة فى كل من المرتين معبرة عن اعتبـارك اياه ناطقة بالغرض منها فوجهـة النظر الى الموضوع والطريقة التى تتحراها لغـايتك هى ما نسميه اسـلوب التناول ولا شبهة فى ان المرء ينظر الى الأمور من جهات معينة ــ من ناحية الجد أو الهزل أو المألوفية أو الشذوذ أو الجلال أو الحقـارة وليس يعنينا من أى ناحية عالج المسألة وانما الذى يعنينا مقدار ما فى سعيه من صدق السريرة وصحة الادراك ودرجة النجاح ومبلغ التغلب على الصعوبات . ونقول مبلـغ التغلب على الصعوبات لأن

القصصي لا تظهر قدرته في المواقف الهادئة السلسة وانما تستبين وتتضح حيث تكون اشخاصه تحت ضغط العواطف القوية وفي المواقف التي تتطلب أدق النظر واشق التمييز وأصح العبارة .

فكيف تناول المنفلوطي موضوعه وما هي الفكرة العامة التي نظر بها فيه ، وبماذا اعد لها وكشف عنها وهل اللغة التي استعملها صادقة وهل السلوك الذي عزاه الى اشخاصه مما هو معهود في الآدميين كما نعرفهم وما مبلغ اسرافه أو قصده وما مقدار خبطه وتخليطه أو اصابته وسداده .

عسى قائل يقول : انك تضعه في ميزان لم ينصبه لنفسه ولا كان في باله ولا جرى له هو وأمثاله في خاطر . وردنا على هذا المحتج ان الأدب لا شأن له بهذا الاهمال أو الجهل والاعتداد فيه الا بالصلاحية للحياة . وهي هي ميزانها أبدا واحد لا رفق فيه ولا هوادة فان خفتم على صاحبكم ان تشيل به الكفة فأخرجوا به من هذا الميدان واذهبوا محمودين مشكورين على النكوص . فان ابيتم الا أن تعدوه كاتبا اديبا فلا مسمح عن قذفه في هذا الاتون الحامي لنعرف من أي معدن هو . وانتم بعد خلقاء أن ترضوا لصاحبكم مانرتضي لانفسنا مختارين مرتاحين فانا نعيش في عصر تفكير عميق . وعهد قلق عظيم واضطراب كبير ، وشك مخيف ليس يتسع لهذه المنكرات والشناعات والتلفيقات عصر تعتصر فيه العقول ويستنفد في حيرته مجهود القلوب وقد استولت الظلمة على عوالمنا السياسية والخلقية والعقلية وصارت حياتنا محيطا زاخر العباب يضطرب بنا متنه في عشي ليالينا المتجاوبة بصيحات الشك والظمأ الى المعرفة والحنين الى النور .

ولقد غبر زمن لم تذهب في أثره عقابيل ادوائه كان القوم فيه يحسبون ان الادب والفلسفة ـ أو النظر المخلص الصحيح ان شئت ـ لايتفقان وان الغائص على الاسرار الطالب للحقائق لا يكون اديبا وان الاديب لا يكون معمدا ورائدا وان ما وصل الله من الخصائص .

والفة يجب أن يقطعه الانسان ويعادى بينه ولكن عهد الظواهر والزبد والقشور وقد سقط فى هوة الابد وجاء زمننا الشادى بعلاقة الطبيعة بنفس الآدمى الراكض بمداركه من ميدان الى ميدان ، والمريغ وراء السماء سماء وبعد الآباد ابادا ، المصيخ الى صوت اعتلاج موج الزمن المتكسر على صخور ذلك « العالم الآخر » .

ونعود الى صاحبكم المنفلوطى ــ وما اهول هذا الانحدار ــ فنقول ان فيما اسلفنا القول فيه من حيث موضوع القصة وسلوك شخصه كفاية وفوق الكفاية . ولقد كان حسب سوانا فى غير هذا البلد أن يشير بطرف القلم الى ما فصلناه ولكنا وطنا النفس على الجلد ورضناها على السكون الى ما تكلفنا اياه حداثة العهد بالأدب الحى .

يحسب المنفلوطى ان تكلف التفصيل فى المحسوسات مظنة الاجادة وفاته ــ وانى له ان يفهم هذا ــ انه لا يعجز احدا ان يقول لك هل فلان هذا الذى تراه طويل أم قصير ونحيل أم بدين وهل فى يده كتاب أم عصا ونائم هو ام جالس ؟! وانما محك القدرة فى تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة لا ظواهر الأشياء وقشورها وفى رسم الانفعالات والحركات النفسية واعتلاج الخوالج الذهنية وماهو بسبيل ذلك .

أما تفصيل المنفلوطى فلا خير فيه بل الخير فى اجتنابه وتحاشيه وليذكر القارىء أن هذا المسكين يروى عن نفسه ويحدث بما يدعى انه كان شاهده من غرفة مكتبه المطلة على غرفة الطالب ــ وهو بطل القصة ــ فى البيت المقابل له فى الشارع فاسمع ماذا يقول المسكين وهو يظن انه قد استحق المنزلة الأولى بين شيوخ الرواية .

« كنت اراه من نافذة غرفة مكتبى وكانت مطلة على بعض نوافذ غرفته فارى أمامى فتى (شاحب) الوجه منقبضا جالسا الى مصباح منير فى احدى زوايا الغرفة (ينظر فى كتاب أو يكتب فى دفتر أو يستظهر قطعة أو يعيد درسا) فكيف استطاع هذا التمييز بين

الاستظهار والاعادة وكيف راى شحوب لون الوجه مع هذا البعد ؟ ولكن هناك ما هو ادهى :

« عدت الى منزلى منذ ايام بعد منتصف ليلة قرة من ليالى الشتاء فدخلت غرفة مكتبى لبعض الشئون فأشرفت عليه فاذا هو جالس جلسته تلك الى مصـــباحه وقد اكب بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه فظننت انه لمـا ألم به من تعبالدرس وآلام السهر قد عبثت بجفنه سنة من النوم فاعجلته عن الذهاب الى فراشه وسقطت به فى فى مكانه فما رمت مكانى حتى رفع راسه فاذا عيناه مخضلتان من البكاء واذا صفحة دفتره التى كان مكبا عليها قد جرى دمعه فوقها فمحا من كلماتها ما محا ومشى ببعض سطورها الى بعض ثم لم يلبث أن عاد الى نفسه » .

وهى لاتفيد ولايمكن ان تفيد شيئا سوىانه بريد ان يطيلالجملة ويمطها حتى يبلغ بها آخر نفس القارىء ثم هل تدرى أنه احس انه موشك أن يقول شيئا مستحيلا ؟ الوقت بعد منتصف الليل والبرد قارس وبين النافذتين عرض الشارع وهو مهما ضـاق وحتى لو كان الوقت وقت الظيرة المتقدة الملتمعة لا يسمح بأن يرى فعل الدمع بالسطور المكتوبة أو جولان العبرة فى الجفن وقد شعر المنفلوطى باستحالة ذلك ولكنه لمصـابه لم يجد ما يخرجه ممـا أوقع نفسه فيه من تكلف المحال غير أن يقول أن الفتى رفع راسه ! كان هذا يكفى لمكينه من ناصية المستحيل !

وانت أيها القارىء هل قنعت أم نزيدك من هذه التلفيقات ؟ ليس بنا بخل ولا لصاحبك عقل فخذ ثالثة الاثافى : ذهب المنفلوطى اليه لأنه سمع « فى جوف الغرفة انه ضعيفة مستطيلة » ووضع يده عليه فعلم ان الفتى محموم .

« فامررت نظرى على جسمه فاذا خيال سار لا يكاد يتبينة رائيه واذا قميص فضفاض (واسع) من الجلد يموج فيه بدنه

موجا فامرت الخادم آن ياتيني بشراب كان عندى من اشربة الحمى فجرعته منه بعض قطرات فاستفاق قليلا »

ابنا حاجة الى التعليق على هذا الهراء ؟ لقد سمعنا بمن لولا محادثته اياك لم تره وبالجسم لو توكات عليه لانهدم فاما القميص من الجلد يموج فيه البدن فلم نكن نتوقع ان يسمعه احد الا في مستشفى المجاذيب ! ومع كل هـذا النحول احتـاح صاحبكم المنفلوطي أن يمر نظره على جسم الفتى .

ولست أحب أن انغص على القارىء كتابنا بكثرة ما أورد من هذه التليفقات المنكرة ولكنى أساله الصبر على هذه الجملة ايضا ـ دعا المنفلوطي الطبيب فجس المريض وهمس فى لذنه ان العليل مشرف على الخطر ـ ولا عجب أن يصير الى هذا المصير الخبيث بعد ان جرعه المنفلوطي ـ شراب حماه ـ ثم دفع اليه المنفلوطي الأجر واحضر الدواء .

« وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ذاهلة النجم بعيدة ما بين الطرفين أسقيه الدواء مرة وابكى عليه اخرى حتى انبثق نور الفجر » .

والعادة ان الأشربة يسقاها المريض بعـد فترات (زمنية) يحددها الطبيب ولكن الظاهر أن طبيب المنفلوطي امره أن يعطيه الدواء بعد كل ... بكاء !؟

ومع ذلك فاذا لم تكن الذاكرة قد خانتنا فان المنفلوطي مات له طفلان فى اسبوع واحـد « فسـكن لهذا الحادث (سكونا) لم تخالطه زفرة ولم تمازجه عبرة على فرط حبه لهما وتهالكه وجدا عليهما » ؟؟؟ وكذلك كان سكونه لمـا ماتت زوجته فقد جلس الى الناس يحادثهم حتى كأن المرزوء سواه .

وبعـد أن اسـتفاق المريض المنكوب بالطبيب والجار صب المنفلوطي عليه وابلا من الأسـئلة وهو يعلم انه فى سـياق الموت

(فاستفاق ودار بعينيه حول فراشه حتى رآنى فقال انت هنا ؟
قلت نعم : ارجو ان تكون احسن حالا من ذى قبل . قال ارجو ان
اكون كذلك . قلت : هل تأذن لى يا سيدى أن أسألك من انت وما
مقامك وحدك فى هذا المكان وهل انت غريب عن هذا البلد أو انت
من اهليه وهل تشكو داء ظاهرا (ياللعمى) أوهما باطنا وهل لك
ان تحدثنى بشأنك وتفضى الى بهمك كما يفضى الصديق الى صديقه
فقد أصبحت معنيا بأمرك (عنايتك) بنفسك ؟

ومن الغريب ان الفتى لم ويصفعه ماذا كان يخشى المسكين لو
فعل وهو ميت لا محالة ـ بل شرع يقص عليه تاريخ حياته الذى
انتهى بين يدى هذا الحانوتى بعد أن فرغ من الحديث الذى يملأ
احد عشر صفحة من تسع عشرة فما اطول نفسه فى ساعة الموت !
وما اخلق هذا الأدب الميت بأن يروى عن المحتضرين ؟ وما أحق
أهل الفتى ان يطالبوا المنفلوطى بدمه ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

شوقي في الميـزان

٢

عرضنا (شوقي) في الميزان لأول مرة فارتج به ارتجاجا عنيفا وأيقظه من غفلة كان فيها سادرا وما هو الا ان حط به ثم شال حتى تمنى ان يركز به على حال ، وذهب يوطن نفسه على جاه غير جاه الشعر ويقول لخلطائه وسماسرته : « هبوني لست بالشاعر أليس لي فخر آخر ادل به ؟؟ »

نقول اجل ولكنه على كل حال ليس بفخر الفحول

اما القراء فقد بلغ الكتاب بينهم من الأثر ما كنا نقدره لأربعة اجزاء فكان اســـتعدادهم لتلقيه دليـــلا على ظهوره في أوانه ـ اسرعوا الى اقتنائه حتى نفدت نسخه في أسبوع او أقل ونادرا ما كانت تقصر النسخة منه على قارىء واحد وتوالى الطلب له في المدينة والاقاليم فلم نر بدا من التعويل على اعادة طبعه ، وقد كان قراؤه من طبقات الناس على افتراق نظراتها الى الأدب . فمنهم شيوخ وكهول من فضلاء الجيل الماضي ذوى العقول المتزنة والفطر المستقيمة والاطلاع المجدى وموافقتهم عليه مرضية ورأيهم فيه جميل . ومنهم أذكياء الشبان الدارسون أو السالكون على الجادة وكثير بينهم المشايعون بل المتهللون . وطائفة اخرى حظها من السماع اكثر من حظها من الاطلاع وجدناها الى الموافقة المشفوعة

بالدهش اميلَ منها الى المنافرة والعنت وربما عز على بعضهم أن يشهد على نفسه بين يوم وليلة بالخطا ويتهم ناقدته بالانحراف فهو يتلمس المعاذير ويدرب لسانه على التغيير ، وفى هؤلاء أمل لا يضيع ولا سيما بعد هداة الدهشة وتطامن المفاجاة لان نزاهة الشباب تغلب مع الاقتناع كل مراوغة ومكابرة ويقال على الجملة ان اثلام المحراث اشتبكت بصعيد صالح ليس فيه من يبوسة الحصباء ما يشق تسويته او يعسر عند اليأس منه نبذه . واما التذمر فقد استقبلنا معظمه من حيث كنا ننتظره ولا نتوقع غيره ونعنى فريقى القراء — وبالحرى المتحدثين — الذين لم نوجه اليهم خطابا . وهما فريق المعجبين على الاشاعة الذين يطربون لما يطرب له الناس فرارا من تهمة الجهل والفرازة ويغرمون بالشعر كما يغرم بعضهم بجمع العاديات والمخطوطات أو بتربية الديكة ويغار على صيت شاعره كما يغار على اللعبة التى فتن بها . ومن اظرف ما يروى عن احدهم أنه سمع جملة فى نقد رثاء شوقى لعثمان غالب وفيها تسخيف للمناحة التى اقام لها الأزهار والرياحين وسؤال عما كان من القطن بأصنافه فى تلك المناحة فظن — صان الله لشوقى اعجابه — اننا انما انكرنا سكوته عن القطن واردنا منه أن يذكره فقال متعجبا : وهل كان القطن (طالعا) وقتئذ فيذكره فى القصيدة ؟!

والفريق الآخر من الساخطين هم أولئك الذين عرفوا بأنهم شركاء شوقى فى (العادات الخصوصية والمنادمات الليلية) فما رأينا أحر من سخطهم ولا أكثر تصنعا لأسبابه وتمحلا لعلله ، وهذه آخر اشارة نلمح اليهم بها .

* * *

ولا نحب أن نسكت هنا عن انتقادين سمعناهما ممن يحسن القصد ولا نستبعد رجوعه الى الحق متى وضح له وجهه . أول الانتقادين واشبههما بالحق اننا اخترنا أوهن قصائد شوقى

واكثرها مغامز . وليس هذا صحيحا فاننا انما راعينا الحداثة فيما اخترناه من قصائده وهى لا تقل فى اعتقادنا واعتقاده عن اجود شعره صياغة ومعنى . ولكن الحقيقة ــ كما قلنا فى الجزء الأول ــ هى ان قراء اليوم غيرهم بالامس فليس يرضيهم ما كان فوق الرضى قبل عشرين سنة . ونحن نذكر أصحاب هــذا القول باننا انما كنا نصوب الانتقاد الى شــــاعرية شوقى وذوقه وروح قصائده ومنهج أدبه متجاوزين عن الصياغة واللفظ وما تؤثر فيه العجلة والتأنى ، واذا كان الطعن فى الشاعرية والعــاهة فى الذوق والاعوجاج فى المنهج فاختلاف القصائد كيفما كان الموضوع والاسلوب لا يقدم ولا يؤخر فى الحكم على الشاعر . ولعلهم بعد الاطلاع على هذا الجزء يعلمون أن القديم والحديث فى شعر شوقى سواسية .

أما ثانى الاعتقادين فهو اننا اغلظنا العصا لشوقى وشددنا عليه النكير . ولهؤلاء نقول اننا لا نهدم خطأ مؤسسا على البرهان فننقضه بالبرهان وحده ولكننا نهدم الوهم المطبق والدسائس المتراكبة وما احوج البرهان فى هذه الى الشــــدة وما اقل ما يغنى فيه اللين والهوادة .

ومما استصعبوه اننا قرنا معانيه بمعانى الشحاذين . فياعجبا !! كأننا نحن نهينه اذا قابلنا ادعيتهم وتوسلاتهم بكلام له لا يختلف عنها وهو لايهين نفسه ويهين ضمير الأمة حين يجمع المحافل المشهودة لتكريم الشحاذة فى أشنع ضروبها !! وأى حق على الناس لمن لا يعرف لنفسه ولا للناس حقا ؟! فنحن لا نرى للرجل فى انفسنا قدرا يتجافى به عن أخشن عبارات الزجر والتقريع وهذا ما اعلناه فى توطئة الجزء الأول ولا نريد العدول عنه فى هذا الجزء ولا فى الأجزاء التالية فمن كان يفقه ما نقول ولم يغضب لكرامة الفكر تداس هوانا ولضمير الأمة يلطم على وجهه عيانا فليغضب علينا ما شاء فانه لا يعرف كيف يغضب .

وكاننا بزمرة شوقي يتساءلون : وما كرامة الفكر هـــذه التى يغضب لها الناس فى آخر الزمان ؟؟ بدعة طارئة على ما يظهر ولكننا نؤكد لهم انها حقيقة تحس وتلمس وان كانت لا تؤكل ، وانها حق بين يحكم به القضاء كما يحكم بحقوق الملك والاجارة والديون !! وسنحدثهم بخبر قضية جرت ابان ظهور الجزء الأول عسى ان يعرف منها من لم يعرف بعض ما يتأفف منه الأديب الجديد بشرف الأدب، وما ترخص له المحاكم فى التأفف من اللصوق باسمه ومقاضاة الذين يجنونه عليه .

كان ولا يزال فى حاضر الزمان ، لا فى سالف العصر والأوان . وفى الجزر البريطانية لا فى جزائر واق الواق ومعـــاهد السحرة والجان ، انسى يقال له رديارد كبلنج يقرض الشعر ويقص للناس القصص ـ لهذا الرجل فيما نظم من الشعر الكثير قصيدة عنوانها « اذا » يحض بها الهمم ويذكى فى النفوس الضرم . شاءت شركة جناتوزان أن تقتبس منها ابياتا لترويج غذاء مشهور من أغذيتها التى تجهزها لمداواة الاعصاب فاقتبستها وكتبتها على لفائف دوائها . فماذا كان من امر ذلك الرجل المدعو رديارد كبلنج الذى قلنا انه يقرض الشعر ويقص النوادر على الناس ؟

زعموا انه قاضاها الى احدى محاكم لندن ، وزعموا أن وكيله ـ ويدعى المستر هيوز ـ وقف فطلب الى القضـــاء منع الشركة من امتهان الأبيات بهذا الاستعمال ، وقال فيما قال . « انه لمن أصعب الاشياء أن يتخيل الانسان امرا أشد ايذاء لنفس المؤلف من ابتذال كلامه بادماجه على هذه الصورة فى صياح الباعة على سلعهم . انها لاهانة لا تقل عن السباب المقذع لكل من لامست نفسه أقل مسحة من الكرامة الادبية » .

قالوا : فلما نطق القاضى بحكمه عذر الشاعر وقال : « لا عجب ان ينفر المستر كبلنج من استخدام كلامه على هذه الصورة ـ وعندى

ان هذا الاقتباس لا يدخل فى حق الاستشهاد الذى يجيزه قانون حقوق الطبع الصادر سنة ١٩١١» وحكم بتغريم الشركة اربعين شلنا تعويضا للاهانة التى الحقتها بالشاعر (١) .

فهذه اسطورة يحفظها الشوقيون ليتفكهوا بروايتها عن تلك العنقاء التى يسمونها الكرامة الأدبية ، ولكن الذين لا يستغربون وقوع هذه الاساطير فى غير قصور الف ليلة حريون ان لا يقفوا بها عند حد التفكهة .

لمثل ذلك الابتذال يغضب أديب الغربيين ويقول محاميهم انه اشد ما يتخيل ايذاء لنفس المؤلف ويؤيده قاضيهم باسم الشريعة ، فما بال شاعرهم أنف أن يتخذ اسمه ذريعة لترويج السلع ولو كانت دواء نافعا وعندنا أمير شعراء وجنوده يظنون أنهم لا يقترفون ما يحاسبون عليه حين يتداعون بقضهم وقضيضهم لترويج شر تجارة يبوء بها كاسب ، ان صح أن التسول بالمثالب تجارة ؟؟

ذلك لأن امير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية واريحية الفنون أقل معنى ولا يفهمون من جمال الشعر الا انه « أسرى مروءة الدنى وأدنى مروءة السرى » كما كان يقال فى عهد مدرسة الاستجداء بالقريض ، وتالله لو لا حكم القضاء وفيه مقنع لهم لما عدوا شكوى كبلنج من تصرف الشركة الا اعجوبة مبهمة ولغزا مغلقا ، لأن هذا الذى أنف كبلنج أن يصنع بشعره على غيره على غير علم منه قد صنعه شوقى بشعره مختارا وتعمد أن يكون اعلانا لسلعة معروضة ؟ الم ينظم أبياتا يروج بها « ريشة صادق » ونشرها فى الصحف ؟ بل فقد قال أدامه الله للدكاكين والمآتم والأفراح والسهرات :

لله ريشة صادق من ريشة ... تزرى طلاوتها بكل جديد
كست الكتابة فى المشارق كلها ... حسنا وفكتها من التقييد

---

(١) جريدة الديلى كرنيكل عدد يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٠ .

تهدى لحسن الخط كل مقصر	وتمد فى الاحسان كل مجيد
اغلى لدى الكتاب ان ظفروا بها	من ريشة الالماس عند الغيد
والذفوف الطرس ان خطرت به	من ريشة الليثى فوق العود
وتكاد تحيى مؤنسا بصريرها	وتقول أيام ابن مقلة عودى
لو لم يكن فى الأمر الا أنهـــا	مصرية لاستوجبت تمجيدى

وفى هذه الأبيات اوفى دلالة على عامية الروح وتبذل الملكة ـ شعر لا يتأبه صاحبه ان ينزل به منزلة الاعلانات التجارية ، وعبقرية دراجة ابانت أن اخيلته وابتكاراته هى ومبالغات الباعة وتزويقات الدلالين وتحلية البضاعة على حد سواء . وان من يروج ريشـــة كتابة بأنها « اغلى من ريشة الالماس » لقريب نسب ممن ينادى فى قوارع الطرقات « ياجواهر يا عنب » والذى يدلل على ريشة عربية بانها « حسنت الكتابة فى المشارق كلها » انمـــا يرشف من البحر الذى تغرف منه « الفرص الحقيقية وأحسن بضاعة فى العالم كله » و « ولم لم يكن فى الأمر الا انها مصرية » شبيهة بكل ما ينسب الى مصر والمصريين على عناوين الدكاكين . ولا اختلاف سوى أن الباعة لا يغلطون غلطة شوقى فيقولون وهم يعرضـــون الريشـــة ويمدحونها بالجدة والسلاسة ان لها صريرا يكاد يحيى الاموات !!

وبعد فان المرء ليزدرى العقل الانسانى نفسه ان قيل ان هؤلاء الصعاليك الفكريين الذين تفوم عليهم الامارة الشوقيـــة من ذوى مزاياه وحملة امانته فى الأرض . فالأدباء فى الامم هم عنوان حياتها الروحية والفكرية ومعيار لـــا تحسه من مفاخر الحيـــاة وقوى الطبيعة ومعـــانى الوجود ، وهم الرافعون فيها لقبس ذلك النور السماوى الذى يفيضه الله من الآيات والفنون جمالا ونبلا . ويوحيه كمالا وفضلا ، وهم اذا ذكرت الفصاحة فى الامم صفحتها الواضحة وطبقتها الممتازة الراجحة ، فقل لى رعاك الله اى هذه الطغمة اميرا كان او ماموا تفخر الأمة الحية بانه صورة ما فى نفوسها من زينة

وجمال ومظهر ، ما فى رؤسها من فكر وخيال ، وترجمان ما يجول بوجداناتها وتعمر به صدورها من قسط فى الوجود ، وتراث مقسم بين ابناء آدم . وان المرء ليزهى بآدميته حين يلقى بنفسه فى غمار الآداب الغربية ، وتجيش اعماق ضميره بتدافع تياراتها ، وتعارض مهابها ومتجهاتها وتجاوب اصدائها واصواتها — ابواب للكتابة منوعة ، ومهايع متسعة ، وفنون مبتدعة . ونحل ومذاهب ، ومدارس ومشارب . والحياة بين هذه الافكار المشرقة معروضة للنظر فى كل شية من شياتها ، محسوسة فى كل حطره من خطراتها : متكررة متضاعفة ، شاكة موقنة ، جادة ساخرة ، ناقمة راضية . شهوانية متنطسة . فياضة غير بكية ، موصولة ينابيعها مروية ، والنفس تحس من احدى نواحى ذلك العالم الرحيب ما لا تحسه من سواها . فكأنها نفوس متفرقة لانفس واحدة جائمة .

كذلك عالمهم . ثم تلتفت الى الأدب الذى يدعيه أولئك الاميون العارفون بالكتابة ، الجهلة المتدثرون بلباس المعرفة . العامة المتطفلون على موائد الخاصة فترى عجبا . ترى هذا عاكفا على رقمتيه ولعلعه وذاك مدبرا الى ربربه وسربه ، ومادحا وهاجيا ومحسوبا على آل فلان ومتمسحا بآل عمران . نفوس ضاوية وعقول خاوية واخيلة فى التراب ثاوية . او كانما هى الاثقال الى القرار هاوية . فصدق احدى اثنتين : اما أن أدبا تسمعه من هؤلاء أشرف ما تنطق به النفس ساعة تسمو الى أسمى معارج الانسانية . أو انهم ليسوا من ذاك وانما هم محترفو حرفة ليس من آلاتها نباغة الطبع وامتياز المدارك ووفور الشعور .

وان من الجناية على مصر والشين لها أن يسمى هؤلاء النفر بعد اليوم أدباءها وتراجمة حياة الروح والفكر فيها . وما ظنك بحياة فنية يعنو ذووها لكل وبش يخطر له أن يسخرهم لقضاء غرض من اغراضه او يستجلب القوت بهم كما يستجلب الحواة والبهلوانات ارزاقهم بعرض لعابينهم وخيولهم ؟؟ ووارحمتا « الكلتور المصرى »

يساق دعائمه لتمثيل الروايات وانشاد الاشعار بأيسر مما يساق المولوية لتشييع الجنائز وتلاوة الاذكار !!

ولقد كان مما قيل فى المدينة الحديثة أن أقلام أدبائها احدى الحواجز التى تصونها ان ترتد الى العصور المظلمة وانها عصمة لها من أن تستبد بعقولها عادة أو تسيطر على ميولها مصلحة فرد أو طائفة ، وانها سلاح من أسلحتها الماضية تخشاه كل قوة ويحسب حسابه كل طاغية ـ فأى عصـــمة لمصر فى أقلام هؤلاء المخططين والنظامين وهم بهذه الحال من الخور والمداجاة ؟؟ الا أن العصا فى يد الاكار لانفع لمدينة مصر وأصون لسمعتها من كل قلم تشرعه تلك النفوس المهزولة .

ومن كان كهؤلاء بحيث ينزلون انفسهم من الكرامة فلا احجاف بهم ، ولا غضاضة تلحقهم مهما كانت وطأة القلم المنصب عليهم . ولقد وجب بل آن ان يفهم الأدب على غير ما يفهمونه وان ينحوا عن مكان لم يخلقوا له ولم يخلق لهم .

* * *

وكأنما شــاء القــدر أن يبدد حبائل شوقى وطلاسمه كلها فى بضعة أسابيع . فقد كان الناس يسمعون من يدعونهم فى مصر علية القوم يثنون عليه فيفترون بتشـــيعهم له ويروعهم اعجابهم به ويحسبون أن لرأيهم فيه شأنا وخطرا ، حتى جاءت لجنة الأغانى فأماطت الستر عما وراء ذلك ، وهتكت للناس حقيقة اعجاب هؤلاء العلية اذا اعجبوا وقيمة استحسانهم اذا استحسنوا . وانها ان هى الا محاباة ماسخة عرت حتى من حسن السبك ولباقة المداراة

شمرت اللجنة عن ساعديها واغمضت أمام المتفرجين عينيها كما يصنع المشعوذ الهندى اذا هم باللعب ، ثم وضعت يدها فى الجراب فأخرجت نشيد شوقى وهى تقسم أنها لا تعرفه وجعلت تلوح به

للملأ كي يشاركها في الابتهاج به فيللمهارة !! ولكنها لسوء حظ شوقي كانت تنقصها خفة اليد !!

ولا حاجة بنا الى الاستنتاج ولا الى العود لما حدث في الجلسة مما اظهر اطلاع أكثر الأعضاء على النشيد قبل التئامها اكتفاء بتسجيل حكم اللجنة نفسها على حكمها الأول .

فالقراء يذكرون أن اللجنة بمن كان فيها من المغنين والعوادين — وهم أعضاؤها الاخصائيون — أختارت نشيد شوقي وأعلنت أسباب اختيارها له في منشورها وهي أنها « انتهت في مناقشتها الى أنه اكفاها وأوفاها بالغرض وأجمعها للمزايا التي ينبغي أن تتسق لنشيد قومي » وكذلك علمنا أن حكمها لم يصدر اعتباطا ، ولا كان عن جهل بالمقصود من الاختيار بل جاء بعد المناقشة .

ويذكر القراء أن الأستاذ منصور عوض كتب بعد ذلك في الصحف ينقد النشيد ويقرر أنه لا يصلح للتلحين بانغام الأناشيد القومية . ثم انهم يذكرون أن فريقا من اعضاء نادي الموسيقى من الذين كانوا في لجنة الاغاني أذاعوا بعقب ذلك في الصحف ان الأستاذ انما يتكلم برأيه ، ومعنى هذا انهم كانوا لا يزالون الى ذلك الحين مصرين على حكم اللجنة مجدين في ابعاد كل مظنة في صلاحية « النشيد الوطني المختار » للتلحين .

فماذا جرى بعد ذلك الحكم المبني على المناقشة وهذا الاصرار الصادر عن روية ؟ .

ثم يصفق جمهور الناس مع اللجنة وقد بدأت هي أمامهم واقبلوا يسألونها وهي محتدمة تصفيقا : ما هذا الذي تصفقين له ؟؟ نعم لم يعد يكفي في هذه الأمور أن يرى الناس ذا لقب يصفق فيصفقون وراءه . وكثر اللغط بتحيزها واجترأ الموسيقيون على الافضاء بآرائهم في تلحين النشيد فسقط سقوطا تاما وكان صاحبه أول

المتهرمين . فقد اخذ يزعم أنه انما نظمه ليغنيه جماعة عكاشة فى مسرحهم . كأنما النشيد مشى بقدمين الى ديوان لجنة الأغانى !!
وخشيت اللجنة ان يكون حكم الأمة عليه حكما قاضيا على معرفتها وانصافها واخلاصها فبادر أعضاؤها الاخصائيون يبلغون الصحف أن النشيد يصلح للتلحين ولكن لا كنشيد قومى !! وقيل بلسان رئيسها انهم لم يشترطوا ذلك فى تلحينه . اذن فماذا اشترطم ؟؟ اتراكم كنتم تقدمون للامة « طقطوقة » تغنيها على المعازف والآلات ؟ وأين ذهبت تلك المزايا التى اتسقت « للنشيد الوطنى المختار » ؟؟

كذلك تهافت حكم لجنة الأغانى بيدها وانكشف طلسم كان من أبهر طلاسم الشهرة الجوفاء لعيون الدهماء ، ونعنى به طلسم الأسماء الخلابة ووهم الألقاب الجذابة . وعندنا أن لجنة هذا مبلغ غيرتها على مهمتها لن يرجى منها صلاح للاغانى ولا لسواها ولكنها اذا كانت تخرج من العدم لتؤب اليه بعد أن تكون قد ابطلت وهم العامة فى امثالها فتلك مهمة طيبة تستحق من اجلها نعمة هذا الوجود القصير .

على أنها مهمة تنفسها على هذه اللجنة فقد شوركت فيها مشاركة لم تدع لها فضلا كبيرا فلو لم تقيضها الحوادث لاظهار قيمة التحبيذ والاطراء من ذوى الألقاب والأسماء لتكفل بذلك محفل آخر اقيم فى شهر ديسمبر الماضى وهذه حكايته نرويها ولا نعقب عليها .

قال المقطم فى عدد يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذلك الشهر: قد كان يوم الجمعة الماضى ميعاد القاء القصيدة الحسينية التى نظمها حضرة الشاعر الفاضل السيد محمد عبد الله القضرى فى الحفلة التى اقيمت تكريما له برئاسة حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسن بدار الجمعية الاسلامية بقصر النزهة بشبرا فما وافت الساعة التاسعة صباحا حتى أقبل المدعوون من علماء وكبراء وأدباء وأعيان فازدحم بهم المكان ثم اقبل نائب الأمير محمد

بك جلبى باشمماون الدائرة فصدحت الموسيقى بالسلام وكذلك فرق الكشافة للكشاف الأعظم ثم ابدات الحفلة بالذكر الحكيم فنشيد شوقى بك فنشيد الكشافة فمقطعات شعرية من بعض طلبة مدارس الجمعية ثم وقف نائب الأمير واعتذر عن سموه بكلمات رقيقة ثم نهض الشاعر ناظم القصيدة والقاها بين الاعجاب والتصفيق الشديد . وبعد انتهائه قدم له نائب الأمير ساعة ذهبية اثرية ثمينة وتبرع حضرة العربى الكريم عبد المجيد بك محمد السعدى بمائة جنيه لطبع عشرة آلاف نسخة من هذه القصيدة التاريخية ثم وقف حضرة الشاعر العربى عمر بك السعدى والقى قصيدة عامرة اثنى فيها على سمو الأمير لتعضيده العلم وامتدح بها الشاعر ثم نزع من اصبعه خاتما من الماس ووضعه فى أصبع الأستاذ القصرى وقدم له سيادة السيد محمد أبو بكر مرغنى شيخ السادة المرغنية بمصر خاتما من الماس وأهداه حضرة عبد الفتاح أفندى عليش لوحة كتب عليها اسمه بخطه الجميل وختمت الحفلة بنشيد مدارس الجمعية انشده بعض التلاميذ والتلميذات ثم بالقرآن الكريم واقبل المدعوون وهم يزيدون على ثلاثة آلاف نسمة لتهنئة الشاعر .

انتهى ما نقلناه من المقطم . فليتأمله القارىء وليتصور اسم شوقى مجردا من مثل هذه الطنطنة بل ليتصوره محلى بها وليستدل منها على ما شاء من مزية تدخر أو شهادة تقدر . .

وثم مثل آخر نسوقه تبصرة وعبرة لهؤلاء الذين لا يعرفون كيف يشرفون اسمنا ويستوجبون الثقة بنا من أعمالهم . هذا الدرس مستمد من حكم لجنة فرنسية كان يصح أن تكون لجنتنا مثلها فى انصافها وفى الاخلاص للفن الذى تخدمه وتنشيط المواهب الفنية التى تنهض اليه لولا انها آثرت لنفسها الخطة العوجاء على الخطة المثلى . ففى فرنسا مجمع معروف يسمى مجمع المسابقات (اكاديمية كونكور) يحكم فى كل سنة بجائزة قدرها اثنى عشر الف فرنك للسابق من الأدباء فى باب من أبواب التاليف ، فأصاب جائزة السنة

المنصرمة فتى اسمه ارنست بيروشون لرواية قصصية الفها .
افيدرى القارىء من هذا ارنست بيروشون ؟

نقلت الانباء البرقية اسمه ذات يوم فالتفت زميلنا المترجم الفرنسى يسال عن شأنه فاذا المسئول والسائل فى العلم به سواء . راجعوا كتب الفهارس والتراجم المشهورة فالفوها خلوا من كل اشارة اليه أو الى اسم قريب منه . فترجموا النبأ متبوعا فيه اسمه بعلامة استفهام . ومضت الأيام ونسينا خبره حتى جاء البريد فلفت نظرى عنوان فى احدى صفحه هذه ترجمته « خير روايات العام . مؤلفها ابن فلاح . يربح جائزة الأكاديمية الفرنسية » (١) فتصفحت الجملة فاذا به صاحبنا بيروشون واذا هو مجهول هناك كجهل قراء مصر به . قال مراسل الديلى كرونيكل فى باريس « وكان بيروشون ، وهو فى الخامسة والثلاثين ، مجهولا الى يوم أمس جهلا تاما وان كان قد طبع فى الأقاليم عدة دواوين شعرية وثلاث قصص .. ولم يكن أحد من اعضاء المجمع يعرفه الا أن أحدهم قرأ قصته المقدمة اتفاقا فاعجبته فقرظها لزملائه . وكان كثير من الادباء النابهين بين طلاب الجائزة يوم امس ولكن فاز استاذ القرية المتواضع دونهم بمشعل النصر » .

فياقوم . اذا نشطت القرائح هناك وخمدت هنا فلا عجب . تلك لجانهم تعدل فى احكامها هذا العدل وتحيى كل ملكة صالحة للحياة وهم لا يأتمون بها مغمضين ولا يسلمون لها خاضعين ، فكيف لو أنها كانت كلجنتنا هذه المباركة : لجنة لا تحسن غير المجاملة ولا تحسن ان تجامل الا بأن ترضى فردا لتقضى على أمة كاملة بالعقم والاقفار ! ان فى ذلك لموعظة .

* * *

---

(١) جريدة الديلى كرونيكل عدد ١٢ ديسمبر ١٩٢٠ .

وخاصة القول اننا عرفنا راى القراء فى عملنا فقسمناهم الى فريقين . فاما الذين يعجبون بشوقى لغير سبب معقول يفىء الى شعره فقد أسخطناهم ولا نسأل الله ان يخفف سخطهم . وأما الذين يرجعون الى الأسباب فقد وثقنا منهم بالمؤازرة وكان اقلهم موافقة من أرجأ الحكم لنفسه حتى يرى . واننا لنعلم أنه يرى ما يقنعه .

ونجمل هذه الخلاصة بشكل آخر فنقول : ان راى الاولين يمثله كتاب ورد الينا غفلا من التوقيع يقول فيه كاتبه ما ترجمته : « خل مذهبك الجديد لنفسك فما نحن بحاجة اليه »

وجوابنا لهذا وأمثاله : « صدقتم ولا هو بحاجة اليكم » .

ويمثل راى الآخرين بيت لقينا به اديب مشهور فقال : ايه يا فلان ، اليك بيتا يسير مسير الأمثال :

شوقى تولاه عباس فاظهره والیوم یخمله فى الناس عباس

وجوابنا له : بل انه عصر يخمل عصرا ولاغيــة وهم تخفتها صيحة حق . وانا لعلى الحق صامدون .

رثاء مصطفى كامل

قال قائل من سماسرة شوقى : ما ترى فى رثائه لمصطفى كامل ؟ اتنتقده ؟ قلت وماذا عساى ان انتقد ان لم أنتقد الهراء والزيف والشتات ؟ قال ان القصيدة آيته . قلت لقد هديتنى هداك الله فما كنت اظنها آية لأحد من العالمين وما حسبتها الا زلة اسقطته فيها « مغالبة الشجون لخاطره » أو داهية خانه فيها امكانه الذى ما فتىء يخونه كما قال منها :

ماذا دهانى يوم بنت فعقنى فيك القريض وخاننى امكانى

وما دهاه الا العجز والفهاهة والحرج . دهته اولا فاجبل وحسر واستعصى عليه النظم فصنعها فى أربعين يوما ثم زاد كثيراً من أبياتها وغير وبدل فيها . ثم دهته ثانيا فجرى فيها على عادته من التلفيق والعقم والزغل المموه . فأما وقد علمت أنها الآية التى بها تؤمن شيعته وذوو المآرب عنده ، والمعجزة التى يستنصر بها دعاته فبآيته فلندحض رسالته وفى معقله الحصين فلنكشف وهنه ونفضح مطاعنه ، وانها لآية ومعجزة والحق يقال ومعقل واى معقل ولكنها آية السيمياء ومعجزة الشعوذة ومعقل الرمل بل اخوى من ذلك واضعف ، واضأل فى الضئولة واسخف ، اراحه الله من شعره بما أراح من اقلام نقاده فانه علم الله لم يزعج لهم بديهة وان كان يزعج بديهته فى صباح ومساء ، ولا كد لهم خاطرا وان كان

خاطره منه فى وصب وشقاء . ولقد فات اصحابنا سماسرة شوقى ان خلافنا معهم لم يكن خلافا على درجات الاجادة وخطوات السبق فتتقارب كلما اجاد شاعرهم فى رأيهــم او خيب آمالهــم واخلف ظنونهم ، ولكننا نختلف على نوع الشعر وجوهره ثم على ادائه وطبقته فربما كانت ارفع القصائد عندهم درجة اخسها عندنا معدنا وربما طربوا كل الطرب من حيث نعزف كل العزوف . كالمسحور كلما ازداد استحسانا لما هو فيه كان أبعد عن حالة الصحو والصواب وكالاعجمى كلما امعن فى فصاحته وبيانه استغلق على مسامع الاعراب . وهذا هو الواقع فى ما آخذناه ونآخذه على شعر شوقى وهو بخاصة شأننا فى الحكم على قصيدته هذه التى رأينـا بعض المفتونين يجلها عن الانتقاد ويعجب من ان تعاب ، وهى لو يفقه من القصائد التى يصاب منها المذهب العتيق فى مقاتله والشواهد التى يبحث عنها لابراز مآخذه . وسنستعرضها على عيوب ذلك المذهب فنبين مواقعها منها حتى يكون لمن قصر النظر على قشورها رأى غير رأيه الأول فيها .

فالعيوب المعنوية التى يكثر وقوع شوقى واضرابه فيها عديدة مختلفة الشيات والمداخل ، ولكن اشهرها وأقربهـا الى الظهور واجمعها لاغلاطهم عيوب أربعة وهى بالايجاز : التفكك والاحالة والتقليد والولوع بالاعراض دون الجواهر ـ وهذه العيوب هى التى صيرتهم ابعد عن الشعر الحقيقى الرفيــع المترجم عــن النفس الانسانية فى أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود من الزنجى عن المدنية من صور الأبسطة والسجاجيد كما يقــول ماكولى عن نفائس الصور الفنية : ولكل من العيوب الآنفة أثر ظاهر فى هــذه القصيدة قد لا تجده فى غيرها من القصائد الا مزويا أو دقيقــا عن فهم الكثيرين . وسنرى بعد سبر هذه القصيدة بهذا المسبار ان من نقائص الشعر ما لا يمنع ان يلمح له رواء معجب يستهوى البسطاء بل ربما زادته جمالا فى الظاهر كالحلى المزيفة فانها فى الغالب أجمل

من كريم الحلى والجواهر ، ولكنها تمنع أن يكون للشعر قيمة غاليه .

(١) التفكك

فأما التفكك فهو ان تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيات متفرقه لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية وليست هذه بالوحدة المعنوية الصحيحة اذ كانت القصائد ذات الأوزان والقوافى المتشابهة أكثر من أن تحصى فاذا اعتبرنا التشابه فى الأعاريض وأحرف القافية وحدة معنوية جاز اذن أن ننقل البيت من قصيدة الى مثلها دون أن يخل ذلك بالمعنى أو الموضوع وهو ما لا يجوز . ولتوفية البيان نقول ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر او خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا أختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وافسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من اجهزته ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الأذن عن العين او القدم عن الكف او القلب عن المعدة . او هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك حتى فنون الهمج المتأبدين فانك تراهم يلائمون بين ألوان الخرز وأقداره فى تنسيق عقودهم وحليهم ولا ينظمونه جزافا الا حيث تنزل بهم عماية الوحشية الى حضيضها الأدنى ، وليس دون ذلك غاية فى الجهالة ودمامة الفطرة . ومتى طلبت هذه الوحدة المعنوية فى الشعر فلم تجدها فاعلم انه ألفاظ لا تنطوى على خاطر مطرد او شعور كامل الحياة بل هو كامشاج الجنين المخدج بعضها شبيه ببعض او كأجزاء الخلايا الحيوية الدنيئة لا يتميز لها عضو ولا تنقسم فيها وظائف وأجهزة ، وكلما استفل الشىء فى مرتبة الخلق صعب التمييز بين أجزائه . فالجماد كل ذرة منه شبيهة بأخواتها فى اللون والتركيب

صالحة لأن تحل فى أى مكان من البنية التى هى فيها . فاذا ارتقيت الى النبات الفيت للورق شكلا خلاف شكل الجذوع وللالياف وظيفة غير وظيفة النوار ، وهكذا حتى يبلغ التباين أتمه فى أشرف المخلوقات وأحسنها تركيبا وتقويما . وهى سنة تتمشى فى أجناس الناس كما تتمشى فى انواع المخلوقات ومصداق ذلك ما نشاهده من تقارب الأقوام المتأخرة فى السحنة والملامح حتى لتكاد تشتبه وجوههم جميعا على الناظر وهى حقيقة فطنت اليها قبائل البدو بالبداهة ولمسها البحترى فى هجوه لمعشر ينعتهم بالهوان والضعة ويقول فيهم :

وبنو الهجيم قبيلة منحوسة حص اللحى متشابهو الالوان
لو يسمعون باكلة او شربة بعمان اصبح جمعهم بعمان

وعلى نقيض ذلك الشعوب العريقة فى الحضارة تراها تتفاوت اقدارا وملامح وبدوات واطوارا حتى ليوشك ان يكون من المستحيل اتفاق اثنين فى هندام الجسم وهيئته وفى مواهب الذهن ونزعته . ونقترب مما نحن بصدده فنقول انك كلما شارفت فترة من فترات الاضمحلال فى الأدب الفيت تشابها فى الاسلوب والموضوع والمشرب وتماثلا فى روح الشعر وصياغته فلا تستطيع مهما جهدت أن تسم القصائد بعناوين واسماء ترتبط بمعناها وجوهرها لما هو معروف من أن الأسماء تتبع السمات والعناوين تلصق بالموضوعات، ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءا قائما بنفسه لا عضوا متصلا بسائر اعضائها فيقولون أفخر بيت واغزل بيت واشجع بيت وهذا بيت القصيد وواسطة العقد كأن الأبيات فى القصيدة حبات عقد تشترى كل منها بقيمتها فلا يفقدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها وهذا أدل دليل على فقدان الخاطر المؤلف بين أبيات القصيدة وتقطع النفس فيها وقصر الفكره وجفاف السنيفة فكانما القريحة التى تنظم هذا النظم وبصات نور متقطعة لا كوكب صلمه متصل الأشعة يريك كل جانب وينير لك كل زاوية وشعبة،

او كانما هى ميدان قتال فيه ألف عين وألف ذراع وألف جمجمة ولكن ليس فيه بنية واحدة حية . ولقد كان خيرا من ذلك جمجمة واحدة على أعضاء جسم فرد تسرى فيها حياة .

واذ كان ذلك كذلك فلا عجب أن ترى القصيدة من هذا الطراز كالرمل المهيل لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه فى قمته ، لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر اليه عن هندسته وسكانه ومزاياه .

وها ه كومة الرمل التي يسميها شوقى قصيدة فى رثاء مصطفى كامل نسأل من يشاء ان يضعها على اى وضع فهل يراها تعود الا كومة رمل كما كانت ؟ وهل فيها من البناء الا أحقاف خلت من هندسة تختل ومن مزايا تنتسخ ومن بناء ينقض ومن روح سارية ينقطع اطرادها أو يختلف مجراها . وتقريرا لذلك نأتى هنا على القصيدة كما رتبها قائلها ثم نعيدها على ترتيب آخر يبتعد جد الابتعاد عن الترتيب الأول ليقرأها القارىء المرتاب ويلمس الفرق بين ما يصح ان يسمى قصيدة من الشعر وبين أبيات مشتتة لا روح لها ولا سياق ولا شعور ينتظمها ويؤلف بينها . ونحن نأسف على قضاء نضيمه من صفحاتنا فلا يعزينا عن ضياعها الا أنها كما نرجو لا تضيع عبثا — قال شوقى أصلحه الله :

١ المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما فى ماتم والدانى

٢ يا خادم الاسلام أجر مجاهد فى الله من خلد ومن رضوان

٣ لمانعيت الى الحجاز مشى الاسى فى الزائرين وروع الحرمان

٤ السكة الكبرى حيال رباهما منكوسة الاعلام والقضبان

٥ لم تألها عند الشدائد خدمة فى الله والمختار والسلطان

٦ يا ليت مكة والمدينة فازتا فى المحفلين بصوتك الرنان

٧ ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سحبان

٨ جار التراب وانت اكـــــرم راحل
ماذا لقيت من الوجـــود الفـــانى
٩ ابكى صبالك ولا اعاتب من جنى هـــذا عليه كرامة للجانى
١٠ يتساءلون ابالســـلال قضيت ام
بالقلب ام هـل مت بالســـرطان
١١ الله يشـــهد ان موتك بالحجـــا
والجـــد والاقـــدام والعـــرفان
١٢ ان كان للاخلاق ركن قائم فى هـــذه الدنيا فانت البانى
١٣ بالله فتش عن فؤادك فى الثرى هل فيـــه آمال لنا واماني
١٤ وجدانك الحى المقيم على المدى ولرب حى ميت الوجـدان
١٥ الناس جار فى الحياة لغاية ومضـــل يجرى بغير عنـــان
١٦ والخلد فى الدنيا وليس بهين عليا المناصـب لم تتح لجبان
١٧ فلو ان رســـل الله قد جبنوا لمـــا
ماتوا عـــلى دين ولا ايمـــــان
١٨ المجـــد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لهـــا الأخـــلاق كالعنـوان
١٩ واحب من طـــول الحيـــاة بذلة
قصر يريك تقـــاصر الاقـــران
٢٠ دقات قلب المــرء قائلة له ان الحيـــــاة دقائق وثوان
٢١ فارفع لنفسك بعـــد موتك ذكرها
فالذكـــر للانســـان عمـــر ثان
٢٢ للمرء فى الدنيا وجم شئونها ماشاء من ربح ومن خسران
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضـيق لمؤثر السـلوان
٢٤ الناس غاد فى الشقاء ورائح يشقى له الرحماء وهو الهانى
٢٥ ومنعم لم يلق الا لـــذة فى طيها شجن من الاشـجان
٢٦ فاصبر على نعم الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان
٢٧ ياطاهر الغدوات والروحات والخطرات والأسرار والاعـلان

٢٨ هل قام قبلك فى المدائن فاتحا غاز بغير مهنـد وسـنان
٢٩ يدعو الى العلم الشريف وعنده ان العـلوم دعائم العمـران
٣٠ لفوك فى علم البـلاد منكسا جزع الهلال على فتى الفتيـان
٣١ ماأحمر من خجل ولامن ريبة لكنما يبكى بدمـع قان
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانمـا فى نعشـك القمـران
٣٣ وكانه نعش الحسين بكربلا يختـال بين بكى وبين حنـان
٣٤ فى ذمة الله الكريم وبره ما ضم من عرف ومن احسان
٣٥ ومشى جلال الموت وهـو حقيقـة
وجلالك المصـدوق يلتقيـان
٣٦ شـقت لمنظرك الجيـوب عقائل
وبكتك بالدمع الهتـون غـوان
٣٧ والخلق حولك خاشـعون كعهدهم
اذ ينصـتون لخطبـة وبيـان
٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى بعد المنابر ام باى لسـان
٣٩ فلو ان أوطانا تصور هيكلا دفنوك بين جـوانح الاوطان
٤٠ اوكان يحمل فى الجوانح ميت حملوك فى الاسماع والاجفـان
٤١ او صـيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبسـت احاسـن الاكفـان
٤٢ او كان للذكـر الكريم بقيـة
لم تات بعـد رثيت فى القـرآن
٤٣ ولقـد نظرتك والردى بك محدق
والداء ملء معـالم الجثمـان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضـلل
قنط وساعات الرحيـل دوان

٤٥ ونواظــــر العواد عنـك امالهـــا
دمــــع تعــــالج كتمــــه وتعــانى
٤٦ تعلى وتكتب والمشــــاغل جمــــة
ويداك فى القـــرطاس ترتجفــــــان
٤٧ فهششت لى حتى كانك عائدى
وانا الذى هــــــد السقام كيانى
٤٨ ورايت كيف تموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصــارع الشـــجعان
٤٩ ووجــدت فى ذاك الخيــال عزائمهــا
ما للمنــــــــون بدكهـــن يدان
٥٠ وجعلت تسالنى الرثاء فهاكه من ادمعى وسرائرى وجنــانى
٥١ لولا مغالبة الشجون لخاطرى لنظمت فيـك يتيمـة الأزمان
٥٢ وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت
فتعـــود ســـيرتها من الدوران
٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجــل فوق النــــيرات مكانى
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقــنى
فيــك القـــريض وخاننى امــكانى
٥٥ هــــون عليـك فلا شـــمات بميت
ان المنيـــــة غاية الانســـــان
٥٦ من للحســـــود بميتة بلغتهـــا
عـــزت على كســـرى انوشـــروان
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحربها
فهل استرحت ام استراح الشـــانى
٥٨ يا صب مصر ويا شـــهيد غرامها
هـــذا ثرى مصر فنـــم بامان

٥٩ اخلع على مصر شـــبابك عاليا
والبس شـــباب الحـــور والولدان
٦٠ فلعـــل مصرا من شبابك ترتدى
مجـــدا تتيـــه به على البـــلدان
٦١ فلو أن بالهـــرمين من عـــزماته
بعض المضـــاء تحـــرك الهـــرمان
٦٢ علمت شـــبان المدائن والقـــرى
كيف الحيـــاة تكون فى الشـــبان
٦٣ مصر الأســـيفة ريفها وصعيدها
قبر ابر على عظـــــامك حان
٦٤ أقسمت انك فى التراب طهـــارة
ملك يهـــاب ســـؤاله الملـــكان

* * *

كذلك انتظمت لشوقى مرثاة فى مصطفى كامل وسماها قصيدة لانها لم تأب ان تستقر فى قرطاس واحد ، ولقد كان أحرى بها أن تسمى اربعة وستين بيتا منظومة فى كل شىء أو فى لا شىء . فاعتبرها أيها القارىء على هذا الترتيب ثم خذها على ترتيب آخر اربعة وستين بيتا لم تزد ولم تنقص ولم تخسر حسنة كانت لها بل لعلها ربحت وعادت احسن نسقا واقرب نظما ــ قال شوقى أيضا :

١ المشرقان عليـــك ينتحبـــان
قاصـــيهما فى مأتم والـــدانى
١٤ وجـــدانك الحى المقيم عـــلى المدى
ولـــرب حى ميت الوجـــــدان
٢١ فارفع لنفســـك بعـــد موتك ذكرها
فالذكـــر للانســـان عمـــر ثـــان
٦٤ اقسمت انك فى التراب طهـــارة
ملك يهـــاب ســـؤاله الملـــكان

٢٧ يا طاهر الغـدوات والروحات والخطـ
ـــــرات والاسرار والاعـــــلان
٩ ابكى صـــباك ولا اعاتب من جنى
هـــذا عليـك كرامة للجـــانى
١٩ واحب من طـول الحيـــاة بذلة
قصر يريك تقـــاصر الاقـــران
٥٦ من للحســـود بميتة بلغتهـــا
عـــزت على كسـرى انوشـــروان
٣٦ شقت لمنظرك الجيـوب عقـــائل
وبكتك بالـــــدمع الهتـون غـــوان
٥٥ هون عليـك فـلا شـــمات بميت
ان المنيـــة غايـــة الانســـــان
٢٠ دقات قلب المـرء قائلة لـــــه
ان الحيـــــاة دقائق وثـــوان
١٣ بالله فتش عـن فؤادك فى الثرى
هـــل فيـــه آمال لنـــا واماني
٦٠ فلعل مصرا من شـبابك ترتدى
مجـــدا تتيـــه به على البـــلدان
٤٣ ولقـد نظرتك والردى بك محـدق
والداء ملء معــــــالم الجثمـــــان
٤٤ يبغى ويطغى والطبيب مضـــلل
قنط وســـاعات الرحيـــل دوان
٤٩ ووجـــدت فى ذاك الخيال عزائما
ما للمنـــون بدكهـــن يـــدان
٦١ فلو ان بالهـــرمين من عـــزماته
بعض المضــــاء تحــرك الهــرمان
٤٦ تملى وتكتب والمشـــاغل جمـة
ويداك فى القــرطاس ترتجفـــــان

٤٥ ونواظر العواد عنك امالهـا
دمـع تعـالج كتمـه وتعاني
٤٧ فهششت لي حتى كانك عائـدى
وانا الذى هـد السقام كيـاني
٥٠ وجعلت تسـالنى الرثاء فهاكه
من ادمعى وسرائرى وجنـانى
٤٨ ورايت كيف يموت آساد الشرى
وعرفت كيف مصـارع الشجعان
٥٤ ماذا دهانى يوم بنت فعقـنى
فيك القـريض وخاننى امـكانى
٥٢ وانا الذى ارثى الشموس اذا هوت
فتعـود سـيرتها من الـدوران
٥٣ قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتجـل فـوق النيرات مكـانى
٥١ لولا مغالبـة الشجون لخاطرى
لنظمت فيـك يتيمـة الازمان

* * *

٥٨ يا صـب مصر ويا شهيد غرامها
هـذا ثرى مصر فنـم بامان
٦٣ مصر الأسـيفة ريفها وصعيدها
قبر ابـر على عظـامك حان
٣٤ فى ذمة الله الكـريم وبـره
ما ضـم من عـرف ومن احسـان
٤١ لو صيغ من غرر الفضائل والعلى
كفن لبسـت احاسـن الاكفـان
٤٠ او كان يحمل فى الجـوانح ميت
حملوك فى الاسـماع والاجفـان

٤٢ و لو ان أوطـانا تصـور هيكلا
دفنـوك بين جـوانح الأوطـان
٤٢ أو كان للذكر الحكيم بقيـة
لم تات بعـد رثيت فى القـرآن
٢ يا خادم الاسـلام أجر مجاهد
فى الله من خـلد ومن رضـوان
٦ يا ليت مكة والمدينـة فازتا
فى المحفـلين بصـوتك الرنان
٧ ليرى الأواخـر يومذاك ويسمعوا
ما غاب عن قس وعن سـحبان
٢ لما نعيت الى الحجـاز مشى الاسى
فى الزائرين وروع الحـرمان
٤ السـكة الكبرى حيـال رباهمـا
منكوسـة الاعـلام والقضـبان

* * *

٨ جار التراب وانت أكـرم راحـل
ماذا لقيت من الوجـود الغـانى
٥٧ عوفيت من حرب الحياة وحـربها
فهـل استرحت ام استراح الشـانى
١٠ يتسـاءلون ابالسلال قضـيت أم
بالقلب ام هـل مت بالسرطان
١١ الله يشـهد ان مـوتك بالحجى
والجـد والاقـدام والعـرفان
١٨ المجـد والشرف الرفيع صحيفة
جعلت لهـا الأخـلاق كالعنوان
١٢ ان كان للاخـلاق ركن قائم
فى هـذه الدنيـا فانت البانى

٢٨ هل قام قبلك فى المدائن فاتحا
فاز بغير مهند وسنان
٢٠ يدعو الى العلم الشريف وعنده
ان العلوم دعائم العمران
٢٢ علمت شبان المدائن والقرى
كيف الحياة تكون فى الشبان
١٦ والخلد فى الدنيا وليس بهين
عليا المناصب لم تتح لجبان
٢٣ فهى الفضاء لراغب متطلع
وهى المضيق لمؤثر السلوان
١٧ ولو ان رسل الله قد جبنوا
لما ماتوا على دين ولا ايمان
٣٠ لفوك فى علم البلاد منكسا
جزع الهلال على فتى الفتيان
٣١ ما احمر من خجل ولا من ريبة
لكنما يبكى بدمع قان
٣٥ ومشى جلال الموت وهو حقيقة
وجلالك المصدوق يلتقيان
٣٢ يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانما فى نعشك القمران
٣٣ وكانه نعش الحسين بكربلا
يختال بين بكى وبين حنان
٣٧ والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان
٣٨ يتساءلون باى قلب ترتقى
بعد المنابر ام باى لسان
٥٩ اخلع على مصر شبابك حاليا
والبس شباب الحور والولدان

٥ لم تالها عند الشدائد خدمة
في الله والمختار والسلطان

١٥ الناس جار في الحياة لغاية
ومضلل يجري بغير عنان

٢٥ ومنعم لم يلق الا لذة
في طيها شجن من الاشجان

٢٢ للمرء في الدنيا وجم شئونها
ما شاء من ربح ومن خسران

٢٤ والناس غاد في الشقاء ورائح
يشقي له الرحماء وهو الهاني

٢٦ فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحياة وبؤسها سيان

فانظر أيها القارىء الى هذه المرثاة هل ترى بينها وبين سابقتها من تفاوت ؟ على أننا قد تناولنا الأبيات عفوا كما بدرت لنا ولم نتحر الاقصاء في الترتيب . ولو أننا غيرنا بعض الضمائر التى تعلق الاسم على الاسم ولا رابطة بينهما وصحفنا حروف العطف التى تصل الجملة بالجملة ولا تناسب بين معناهما لم يكد يجتمع بيت من القصيدة على بيت ، وانما يظهر انحلال هذه القصيدة من سؤال القارىء نفسه : هل قرأ في الشعر أشد تفككا منها ؟ فعلى حسب الجواب يكون حكمه على مصدرها من قريحة شوقي وهل هي نبعت من شعور فياض يتدفق على موضوعه فيغمره كما يغمر السيل الوهاد والنجاد أو تقطرات من عقل ناضب ينبض بالقطرة بعد القطرة بخلع الضرس وبخلع النفس فتأتي كالرشاش لا يتولد منه الا الوحل واليبس ؟

وقبل أن نتحول من كلامنا على التفكك وفقدان الوحدة الفنية ننبه من يستبهم عليه الامر الى اننا لا نريد تعقيبا كتعقيب الاقيسة المنطقية ولا تقسيما كتقسيم المسائل الرياضية وانما نريد أن يشيع الخاطر في القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر فتكون كما أسلفنا بالأشلاء الملفقة أشبه منها بالأعضاء المنسقة كما رأينا في هذه القصيدة .

(٢) الاحالة

اما الاحالة فهي فساد المعنى وهي ضروب فمنها الاعتساف والشطط ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ومنها الخروج بالفكر عن المعقول أو قلة جدواه وخلو مغزاه وشواهدها كثيرة في هذه القصيدة خاصة .

فمن ذلك قوله :

السكة الكبرى حيال رباها منكوسة الاعلام والقضبان

وقضبان السكك الحديدية لا تنكس لأنها لا تقام على أرجل وانما تطرح على الارض كما يعلم شوقي . اللهم الا اذا ظن انها أعمدة تلغراف . على أنها لو كانت مما يقف أو ينكس لما كان في المعنى طائل اذ ما غناه قول القائل في رثاء العظماء أن الجدران أو العمد مثلا نكست رؤسها لأجله ؟

ومنه قوله :

ان كان للاخلاق ركن قائم (في هذه الدنيا) فانت الباني

وهذا بيت لو جرى المدح والرثاء كله على سننه وانتظم النطق والأداء أجمعه على طريقته ونمطه لما فهم الناس من الكلام شيئا ولما كان على من يؤتى هذه القدرة من المنطق ضير ولا خسارة من قطع لسانه . والكلام في كل لغة ولأى قصد انما يحتاج اليه للدلالة على معنى معين أو وصف يطابق موصوفه فان لم يكن كذلك فهو وبحران المحموم وهتر المجنون سواء ، والشعر اذا لم يصح أن يقال في انسان

معلوم أو صح أن يقال فى كل انسان : فى السياسى والعالم والاديب والواعظ والصانع ، فهو الهذيان بعينه ، فماذا يفهم السامع من بيت كهذا يرثى به مصطفى كامل ؟ ايفهم انه وحده هو البانى لكل ركن للاخلاق فى هذه الدنيا ؟ اذن فماذا يقال عن النبى ان قيل هذا عن الزعيم السياسى ؟

وهل لا يصح حينئذ أن يقال هذا القول فى قائد الحرب وفى جوابة الافاق وفى خطيب المحافل وفى التاجر السرى والوزير المحنك والمربى المرشد والمخترع الحاذق فى كل انسان بل فى الناس جميعا بل فى مخلوقات الله وكائناته طرا من حى وثابت وجامد ؟ فانه على كل وجه صرفته قول خلا من الصدق والمدلول سواء أرثيت به حجرا أم رثيت به كونفوشيوس الذى دان بمذهبه آلاف الملايين منذ الوف السنين .

ولا جرم فان كونفوشيوس وحده صاحب شريعة فى قومه ، وهبه نبيهم الفرد فما الصين كل العالم ، وهبها كل العالم فما كان تاريخ (هذه الدنيا) تاريخ جيل واحد . ولقد كان مصطفى زعيما سياسيا يوقظ هذه الأمة فلو قيل انه موقظ كل نفس بمصر فى عصره لما كان هذا حقا اذ كم فى مصر من رجل ايقظه ما أيقظَ مصطفى نفسه من الحوادث والعبر والمعارف وكم فيها من اناس لم يطرق صوته لهم سمعا ولا قلبا !

فاذا زيد على ذلك انه موقظ كل نفس بمصر فى كل عصر فقد صار الكلام لغوا وسفها فاذا لم يكتف بهذا وقيل عنه انه موقظ كل الناس من جميع الأمم فى جميع العصور فالأمر شر من اللغو واقبح من السفه — هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية فما ظنك اذا خرج القائل من هذه الدائرة الى دائرة الاصلاح الأخلاقى فزعم أن ليس للاخلاق ركن قام فى هذه الدنيا الا وهو من بناء رجل ولد فى أواخر القرن التاسع عشر ، وانها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ولم يسمع لاسمه صدى ؟

اذن يكون بكم العجماوات خيرا من شعر الآدميين كما قلنا فى فصل مضى .

* * *

ومن الاحالة قوله :

بالله فتش عن فؤادك فى الثرى
هـــل فيـــه آمال لنا واماني

لو سأل : هل فى قلبك المدفـون فى الثرى آمال لنـا واماني لاغتفرت له هذه الثرثرة على قلة محصلها وتفاهة مغزاها . أما الذى يسأل أن يفتش فلا يصح أن يسأل هل فى قلبك آمال واماني الا فى معرض التبكيت والتأنيب كمن يقول لرجل يتحرك ولا يعي : يا هذا الذى يمشي هل انت حى ؟

ولقد قال حكيم :

تمـوت مع المرء حاجاته وتبقـى له حاجة ما بقى

فكل من يفرض فيه أنه يفتش فله قلب تجول فيه الآمال ، بله كبار النفوس وبعيدي الهمم ومنها :

فلو ان رسل الله قد جبنـوا لمـا
ماتوا عـــلى دين ولا ايمـــان

الصواب فى اظهار فضل الشجاعة ان يقال انها لازمة فى اصغر المطالب واقرب الغايات كما يقال فى اظهار فضل المـال ان الانسان لا يقــدر على أن يشترى ابرة بغيره ولا يقال فى الدلالة على شــدة لزومه وبيان الحاجة اليه انه لا يقدر على شراء مدينة بدونه .

ولو قال شاعرنا ان احقر الناس خليق أن لا يكسب قوته القفار بغـير الشجاعة لـكان لقـوله معنى ، أما الاستشهاد على قـدرها واستجاشة الناس لها بأنها ضرورية لمن كان رسولا ففى وسع الناس قاطبة أن يقنعوا بما دون الرسالة فلا يحتاجون الى الشجاعة . اما أن قيل ان الشاعر يعنى أن الرسل الذين تمدهم قوة الله وتؤيدهم

روح الله لابد أن يكونوا شجعانا حتى يؤمنوا فقد اعتذر القائل من فارغ الكلام بما هو افرغ منه وهل اذا سمعت ايها القارىء رجلا يخبرك أن المصارع المؤيد بالمنة ومتانة الخلق لو لم يكن قويا لما كان قويا أكنت تظنه يخبرك بشيء يستحق أن ينظم فى بيت شعر ؟ فهذا الذى يخبرنا به شوقى ان صح انه يعنى ما افترضناه ومن احالاته :

فهى الفضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

❋ ❋ ❋

والذى يقوله الناس ـ وشوقى منهم اذا شاء ـ ان فضاء الدنيا يضيق بالراغب المتطلع وان سعة الرحب تأزم بالطامح المتدفع ، لبعد آماد همته وتطاول آناء طماعته ، وقد يقولون ان القانع السالى تنفسح له سم الخياط ويرحب به جحر الضب ! !

فاما القول بأن المطامع تفسح الدنيا والسلوان يحرجها فرأى لا يخطر الا على فكر كفكر شوقى المقلوب .

ومن هذه الاحالات هذه الفهاهة :

فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها
نعمى الحيـــاة وبؤسها سيان

والصبر على بؤس الحياة معروف أما الصبر على نعماها فماذا هو ! ولكن ويحنا فقد نسينا أن المصائب والخيرات سيان فلا غرابة فى ان يصبر الانسان على النعمة وأن تبطره المحنة . هكذا يقول شوقى وما اصدقه فاننا لا نرى منحة هى اشبه بالمحنة من هذا الشعر الذى انعم الله به عليه . ولله فى خلقه شئون .

ويقـول :

يزجون نعشك فى السناء وفى السنى
فكانمـا فى نعشـك القمـران

وزعيمنا الفقيـد كان فردا والقمران اثنان فمن كان الثانى فى ذلك النعش ؟!

ولا يقال ان صاحبنا أراد مقابلة السناء والسنى بالقمرين لأن السناء هو الرفعة والسنى النور والشمس والقمر كلاهما رفيع منير فلو إنه قال « كأنما فى نعشك القمر » أو « كأنما فى نعشك الشمس » لما نقص فى الحالتين وصف من ذينك الوصفين . ولعمرى كيف يكون النعش فى السناء والسنى ثم يكون السناء والسنى فى النعش ؟ ؟ وما هذا الرثاء الذى لا يتم الا بالقــاء الشمس والقمر من عليائهما ميتين ؟؟ وليته رثاء يتم بهذه النكبات التى تزلزل الأفلاك . فمـا علمنا من فرق بين شعرائنا الذين يصفون العظيم فى كل حالة بأنه كالشمس والقمر وبين الطفل الذى يمدح كل ما يعرفه بأنه كالسكر فالمدرسة سكر والكتاب ســكر وأبوه ســكر وبيته سكر . كذلك شعراؤنا هؤلاء : مرثيهم شمس وقمر وممدوحهم شمس وقمــر ومعشوقهم شمس وقمر وأولادهم شمس وقمر ولا اختلاف بين امرىء وامرىء ولا بين حالة وحالة فى جميع هذه الأوصاف .

ويقول عافاه الله :

وانا الذى أرثى الشموس اذا هوت
فتعـــــود ســــيرتها من الدوران

اى والله ظاهر . لكن الشموس والأقمــار والنجوم التى تباع الحزمة منها بخمس مليمات وفى هذه نظر .

ويقول :

يا صـــب مصر ويا شــهيد غرامها
هــــنا ثرى مصر فنم بامان

ونقول انما يرثى بهذا البيت غريب جاهد فى سبيل مصر وهو بعيد عنها فاذا قضى نحبه ولم يرها كان من العــزاء أن نتعلل بأنه سينام فى ثراها . ومن السخف أن يقال لرجل مات فى وطنه : أحببت بلدك فنم فى ثراه اذا كان لا يدور بخلد أحد انه سيدفن فى غيره .

ومن مبالغاته التى تلحق بما تقدم من هذا القبيل :

فلو أن بالهرمين من عزماته   بعض المضاء تحرك الهرمان

ولعله أراد المقابلة بين الشباب فى البيت المتقدم والهـرمين فى هذا البيت ونحن ننعى على هذه المبالغة دائما انها لا تدل على شىء فهب انه قال :

فلو ان بالقطبين من عزماته بعض المضاء تحرك القطبان

او قال :

فــــلو ان بالشـــطين من عـــزماته

بعض المضـــاء تحـــرك الشـــطان

الى آخر المثنيات التى تسكن ولا تتحرك . ثم هب انه قال البيت فى رثاء مصطفى أو رثاء باســتور او فى رثاء ابن زريق او مشــهور كائنا من كان فماذا يختلف من المعنى ؟ ومتى كانت الأوصاف لا تتغير موصوفاتها فلماذا يتجشم تعب كتابتها ونظمها ؟

ويقول :

مصر الأســيفة ريفهـا وصعيدها

قـــبر ابـــر على عظـــامك حان

* * *

مصر أيها القارىء ــ ولا تخطىء فتحسبها القاهرة المعزية فانها مصر بريفها وصعيدها ــ مصر كلها ما هى الا قبر واحد . فلله در شاعرها يرثى رجلا أحيا نهضة بلاده فيجعلها قبرا ، ولأى ضرورة وليدل على ماذا ؟ لا شىء .

وقد اجتزانا بهذه الابيات ، لا لأنها كل ما فى القصيدة من شواهد الاحالة واعوجاج الطبع ، بل لأنها ذات طعم وان كان رديئا ممجوجا وما سواها تافه لا طعم له ولا مذاق فيه . والحقيقة أن القصيدة بجملتها بنت الأحالة والسقط فاذا سلم منها بيت من النقد فانمـا اكثر سلامته من الخلو لا من الاتقان .

* * *

(٢) التقليد

أما التقليد فأظهره تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني وأيسره على المقلد الاقتباس المفيد والسرقة وأعز أبيات هذه المرثاة على المعجبين بها مسروقة مطروقة فهذا البيت :

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان

مقتضب من بيت المتنبي :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته
ما فاته وفضول العيش اشغال

وهذا البيت :

والخلق حولك خاشعون كعهدهم
اذ ينصتون لخطبة وبيان

شوه فيه معنى أبي الحسن الانباري فوق تشويهه وذاك حين يقول في رثاء الوزير أبي طاهر الذي صلبه عضد الدولة :

كأنك قائم فيهم خطيبا   وكلهم قيام للصلاة

ونقول شوهه لأن الخطيب لا يخطب الناس وهم سائرون به وانما يفعل ذلك اللاعبون في المعارض المتنقلة.

وقوله .

او كان يحمل فى الجـوانح ميت
حملوك فى الأسماع والاجفـــــان

مأخوذ من بيت ابن النبيه فى قصيدته التى لم تبق صحيفة لم تستشهد بمطلعها :

النـــاس للموت كخيـــل الطراد
فالسابق السابق منها الجواد

والبيت هو :

دفنت فى الترب ولو أنصفوا ما كنت الا فى صميم الفؤاد

على ان المعنى مرذول بلغ من ابتذاله وسخفه ان تنظمه «عوالم» الافراح فى أغانيها وحسب الشاعر ان لا يكون ابلغ ولا ارفع من القائلات « أحطك فى عينى يا سيدى واتكحل عليك » وانه ليقــول كما قلن :

ولو ان لى علم ما فى غد خباتك فى مقلتى من حــذر

وقوله :

او كان للذكر الحكيم بقية لم تات بعد رثيت فى القرآن

منظور فيه الى بيت المعرى :

ولو تقـــدم فى عصر مضى نزلت
فى وصفه معجزات الآى والسور

وهذا البيت :

او صيغ من غرر الفضائل والعلا
كفن لبســـت احاسن الاكفـــان

من قول مسلم بن الوليد :

وليس نسيم المسك ريا حنوطه
ولكنـــه ذاك الثنـــاء المخلف

فما اضاف شوقي الى هذه المعاني سوى انه جعل الاكفان تصاغ وانه تحذلق فقال :

فلو ان اوطانا تصـــــور هيكلا
دفنـــوك بين جـوانح الاوطان

يريد جسدا . كأنه يحسب أن الأوطان ان لم تصور جســدا لم يدفن الفقيد النابه فيها !!

وربما سرق شوقي ما لا يستحق ان يسرق فهذه شطرته :

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى

أليست هي شطرة الشريف في أحدى همزياته :

لمــا نعــاك الناعيان مشى الجوى

وكذلك هذه الشطرة « ان المنية غاية الانسان » هي من قول الشريف أيضا « ان المنية غاية الابعاد » وكأن القافية صدته عن انتهاب الشطرة كلها فعاد اليها في رثاء فريد اذ قال :

من دنى او ناى فان المنايا غاية القرب او قصارى البعاد

فأتم الغنيمة في قصيدتين . وسنعود الى بيان سرقاته في فصل على حدة .

* * *

ويشبه الاحالة من عيوب المقلدين ولعهم بالأعراض دون الجواهر وهو العيب الرابع الذى اخترنا الكلام عليه من عيوب هذه القصيدة الدالة على أنماط التقليد ومذاهبه . بيد ان الفرق بينهما كالفرق

بين الخطأ واللعب والسخف والعبث ولكل منهما سبب يمت به الى الآخر اذا تشابها فى الصدور عن طبع أعوج وعقل فارغ . وقد يسهل التفطن الى الاحالة ولكن التفطن الى هذا الضرب من العبث عسير على من لا يدركه بالبداهة كما يعسر على الاطفال ادراك رزانة الرجال انظر ايها القارىء الى هذا البيت :

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

فانه بيت القصيد فى رأى عشاق شوقى فعلى اى معنى تراه يشتمل ؟ معناه ان السنه أو مائة السنة التى قد يعيشها الانسان مؤلفة من دقائق وثوان ، وهذا هو جوهر البيت ، فهل اذا قال قائل ان اليوم اربع وعشرين ساعة والساعة ستون دقيقة يكون فى عرف قراء شوقى قد اتى بالحكمة الرائعة ؟ ولكنهم يقولون لك انه قرن بين دقات القلب ودقات الساعة وهذه هى البراعة التى تعجبنا وبها هدانا الى واجب الضن بالحياة — وهنا يبدو للنظر فى قصر المسافة التى يذهبون اليها فى اعجابهم وان بلاغتهم المزورة لا تتعلق بالحقائق الجوهرية والمعانى النفسية بل بمشابهات الحس العارضة . والا فلو قورن بين الساعة والقلب أيام كان يقاس الوقت بالساعات المائية أو الرملية فهل يفهم لهذه المقارنة معنى وهل لدقات القلب الخالدة علاقة حقيقية بدقات الدقائق والثوانى يستنبط منها الانسان سر الحياة ؟

ابهذه العوارض يقدر الاحياء نفاسة حياتهم وهل يتوقف المعنى الذى ينظم فى الحياة الانسانية على علاقة سطحية باختراع طارىء ؟؟ ولقد قلنا فى نقدنا لرثاء فريد « ان الحقائق الخالدة لا تتعلق بلفظ أو لغة لانها حقائق الانسانية باسرها قديمها وحديثها عربيها وأعجميها » ونعيد هذه الكلمة هنا ونزيد عليها أن الحقائق الخالدة لا تتعلق بفترة محدودة ولا تقوم على مشابهة زائلة فليذكر ذلك قراء الجيل الغابر وليتدبروه . ويقيننا ان أحدهم لو سمع

ناصحا يعظه فى موقف جد ـ وأى موقف جـــد أجد من رثاء النابغين ؟؟ ــ فيناديه يا اخى صن وقتك لان قلبك ينبض كما تنبض الساعة لاغرب فى الضحك ولخطر له أن صاحبه يخامره الشك فى عقله ، ولكنه حين يسمع هذا الكلام شعرا يطرب له ويكبر قائله ، وما ذاك الا لحسبانه ان الهزل جائز فىَ الشعر فكاهة وحكمة ، ولو علم أن الشعر جد كجد الحياة لمـا تمثل بما حقه أن يضحك منه ويلهو به .

وكهذا البيت أخواه هذان

لفوك فى علم البـلاد منكسـا	جزع الهلال على فتى الفتيان
ما احمر من خجل ولا من ريبة	لـكنما يبكى بـدمع قان

وللعلم جوهر وعرض فأما الجوهر فهو ما يرمز اليه من مجد الأمة وحوزتها وما يناط بمعناه من معالم قومية وفرائض وطنية . وأما العرض فهو نسيجه ولونه خاصة وليس لها قيمة فيما ترفع الاعلام لاجله . فشوقى يولع بهذا العرض اذا هو نظم فى العلم ولا يعنيه ذلك الجوهر . ولا ريب انه ما كان يذكر لف نعش المرثى بالراية المصرية لو لم تكن حمراء كى يكون لونها دمعا ودمعها دما منزوفا . وليست هذه هفوة او فلتة بدرت منه هنا بل هى دأبه كلما وصف علما ، فقد قال فى وصف الهلال الأحمر :

كان ما احمر منه حول غرته	دم البراءة زكى شيب عثمانا
كان ما ابيض فى اثنـاء حمرته	نور الشهيدالذىقدمات ظمآنا
كانه شـفق تسمو العيون له	قد قلد الأفق ياقوتا ومرجانا
كانه من دم العشاق مختضب	يثير حيث بدا وجدا واشجانا
كانه من جمـال رائع وهدى	خدود يوسف لمـاعف ولهانا
كانه وردة حمـراء زاهيـة	فى الخلدقدفتحتفىكفرضوانا

فهو يمثل راية الأمة وعنوانها بالوردة وبالوجنة وباليـاقوت

والمرجان فى لون الشفق . حتى الدم اذا ذكره يكون خضابا لشيبة
أو دم عشاق . فيا للطاقة الشعرية !! وليته سلم بعد ذلك من
عيوب اللفظ فلم يخلق ليوسف خدودا من حيث خلق الله له خدين
ولم يجعل للراية غرة ولا غرة لها بل ليته طابق الواقع المحسوس
اذ هو قد وصف هلالا ابيض فى اثناء حمرة والهلال الأحمر على
عكس ذلك كما يدل اسمه عليه لو أنه تنبه اليه — ومع هذا فانى
لا قسم أن صاحبنا رص هذه (الكائنات) فى ابياته الستة ويخيل اليه
انه لو تقدم به الزمن الى عهد عمر بن الخطاب لقال اشعركم من يقول
كأن وكان لا من يقول من ومن ..

ومن الغباء العجيب أن يصف هذا الرجل راية حمراء ملفوفة
على نعش بطل من أبطال الوطنية فيسرع بنفى الخجل والريبة عن
احمرارها كأنها ملفوفة على نعش راقصة يخشى أن يظن بها الناس
الظنون وهى بريئة عفة !! اذ ما الذى يخطر على باله الخجل والريبة
فى هذا المقام وهو يرثى الرجل الذى يخاطبه قائلا

ان كان للأخلاق ركن قائم فى هـذه الدنيا فانت البانى .

ولكنها الغباوة لا تعلم اذا بدأت أين تنتهى بصاحبها !! وليت شعر
شوقى اذا كانت رايتنا كالراية الفرنسية فماذا تراه كان يقول ؟؟
أكان لا يرى للف النعش بها أى معنى لأنها لا تبكى بدمع أحمر ؟؟ .

تلك آية شوقى ومعجزته : آية السيمياء . معجزة الشعوذة .
كومة الرمل كما قلنا فى أول المقال . ولقد أتم فيها امتساخ الطبائع
بمخالفة الواقع فجاءت معرضا مختارا من الأغلاط ، وسملا مرقعا
من النشوز والأختباط . وما كان يسعه أن يخرج نفسه خلقا
آخر فيأتى بالمستوى من الشعر وهو غير مستو ، ويستقيم فى
أغراضه ومعانيه وهو ملتو ، ولكن كان يسعه أن يعلم ان السكة
الحجازية لم تصل الى مكة فلا يقول

لما نعيت الى الحجاز مشى الأسى — فى الزائرين وروع الحـرمان
السكة الكبرى حيال رباهما — منكوسة الأعلام والقضـبان

والحرمان فى الحجاز هما الحرم المدنى والحرم المكى وكل قارىء للصحف ولا سيما لدن وفاة مصطفى كامل يعلم ان ليس حيال ربى مكة سكة كبرى ولا صغرى ، وكذلك هى حتى الساعة

وكان فى مقدوره ان يعلم أن الحسين لم يشيع فى موكب حاشد كما شيع مصطفى فلا يقول فى وصف نعشه

وكأنه نعش الحسـين بكربلا — يختال بين بكى وبين حنـان

وقد رايناه يغير على قصائد الشريف افتراه لم يفقه رائيته التى يقول منها فى مصرع الحسين .

وخر للموت لا كف تقلبـه — الا بوطىء من الجرد المحاضير
كأن بيض المواضى وهى تنهبه — نار تحكم فى جسم من النور
تهابه الوحش ان تدنو لمصرعه — وقـد اقام ثـلاثا غير مقبور

وقصة مصرع الحسين مشهورة سيارة . ومن العامة من يستظهر خبره ويعلم كيف انه قاتل حتى اثخن بالجراح وانه — لا حيا الله قاتليه — مات وبه ثلاث وثلاثون طعنة وأكثر من أربعين ضربة ثم ديس بالخيل ورض جسده واحتز راسه وطوفه ابن زياد الكوفة . ثم أرسله الى يزيد فى خبر فاجع لا حاجة الى تفصيله . وأنى لمن يموت هذه الميتة أن تحتشد له الجنائز ويطاف بنعشه فى المواكب !! ولا نقول يختال بين البكاء والحنان فما من أحد ينسب الاختيال الى النعوش الا من كان نعشا مختالا كهذا الذى لا يميز بين تشييع قتيل الى قبره وزف عروس الى خدرها . فأن زعم أنه يقصد موكب عاشوراء الذى يحتفل به الشيعة كل سـنة تذكارا لوفاة الحسين فالخطأ أعظم واقبح لأننا نرى كل عام صورة من هذا الموكب

فما رايناهم يحملون نعشا وانما يقتادون جوادا مسرجا ملجما لانهم أزكن من شوقي وادرى بما ينبغي ان يذكر به يوم الحسين اذ كانوا يحتلفون بمصره في ميدان حرب لا بمدفنه في الثرى .

كان يسعه ان لا يقول ذلك كما كان يسعه ان يسكت ولكنه الهم أن يستقصي عاهات الشعر ما يتداركه منها ، اذا شاء ، وما لا يتداركه . وان يجتهد في ذلك كأنه يكافأ على مجهوده وهو في الحقيقة يكافأ المكافأة التي يستحقها فانه بهذه العاهات ينفق شعره بين الجهلة والسذج ومن لا يهمه من قراءة الشعر واستحسان ما يشيع عنه الاستحسان الا أن يدفع عنه تهمة الجهل والسذاجة او يقال عنه انه يشتغل بكيت وكيت من الغرائب والفنون .

* * *

ولا ندع هذه القصيدة التي ملأها شوقي بما يسميه حكمة وبما يتسامى به الى مضاهاة المتنبي ومضـــارعة المعرى قبل ان تكشف عن غشاوة يخدع من قبلها كثير من قراء الشعر الذين يؤمل صلاحهم واقتناعهم وان نروز تلك البديهيـــات واشـــباه البديهيات التي يتصنع شوقي بها الحكمة والرشد لعله يريحنا من هبنقياته ويريح نفسه من عبء لا طاقة له به .

فالحكمة في الكلام ضربان : الحكمة الصادقة وهي من اصعب الشعر مراما وأبعده مرتقى لا يساس قيادها لغير طائفة من الناس توحي اليهم الحقائق من أعماق الطبيعة فتجرى بها ألسنتهم آيات تنفج ببلاغة النبوة وصدق التنزيل ويلقى احدهم بالكلمة العائرة من عفو خاطره ومعين وجدانه فكأنما هي فصل الخطاب ومفرق الشبهات تستوعب في أحرف معدودات ما لا تزيده الأسفار الضافية الا شرحا وامتدادا وتسمعها فتشع في ذهنك ضياءها وتريك كيف يتقابل العمق والبساطة ويأتلف القدم والجدة : قدم الحقيقة كأثبت ما تحلوها الحياة المتقلبة وحدة النظر الثاقب والنفس الحية التي تطبع كل مرئي بطابعها .

فهى تارة تلم لك شعث الحقيقة فتحسبها مجموعة كذلك منذ الازل لم تتفرق قط ولا يكون لها أن تتفرق . كبيتى المتنبى اللذين يعدد فيهما من تصفو لهم الحياة . وهما :

تصفو الحياة لجاهل او غافل عما مضى منهـا وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع

فالجاهل من لا يعى والغافل من يعى لو شاء ولكنه لا ينتبـه والمغالط نفسـه واع منتبه يحجب بيديه ما تبصره عيناه . وهؤلاء هم الذين يغنمون من الحياة صفوها على قدر حظهم الذى قسمه من الشعور بها ومهما يجهد الجاهد فلن يجد انسـانا غير هؤلاء تصفو له الحياة على حال ولن يحذف من عبارة البيتين كلمة الا نقص بقدره من المعنى .

وتارة يلمع الى الحقيقة المألوفة فيحسن تصويرها حتى لكأن قارئها قد كان يجهلها أو قد نسيها فعاد يذكرها . كقول طرفة بن العبد :

لعمرك ان الموت ما اخطا الفتى لكالطول(١) المرخى وثنياه باليد

وهذا اجمل ما يقال فى بحبوحة العمر المرتهنة بالأجل

وطورا تصل طرفى الفكرة فتعرضها عليك من جانبيها كما قال البحترى

متى ارت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب الا خمول نبيـه

وطورا تصدع برأى يشطر الخلاف شطرين كالسيف الجراز تضرب به العقدة المؤربة فيقسمها على عجل كقول المتنبى المأثور

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـة فلعـله لا يظلم

او كقول أبى فراس

ما كل ما فوق البسيطة كافيا فاذا قنعت فـكل شئ كافى

---

(١) الطول : حبل يطول للدابة لترعى والثنى الطرف .

ومن هذه الحكمة ما ينتزع به الشاعر مشاهدة من مشاهدات الطبيعة فتصبح كأنها القانون الجامع او يقصد بها حالة واحدة فتطابق لصدق نظره كل حالة من نوعها ومنها بيت العباس بن مرداس

بغاث الطير اكثرها فراخا وام الصقر مقلات نزور

فليس الشأن كذلك فى كرائم الطير فحسب بل هو مما يطرد كثيرا فى كل نسج ونتاج .

ويقرب الشاعرالحكيم المعنى العويص والفكرة البعيدة فيوضحها وضوح المألوفات كما صنع الافوه الاودى بهذا البيت الفذ

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة اذا جهالهم سادوا

فقد حفيت الاقلام بحثا وتنقيبا فى علوم الاجتماع وكلت القرائح تدبرا وانعاما فى شئون الامم وراقبت الدول على سنن شتى من الأنظمة والدساتير فما خرجت كلها بزبدة او جزو لا اصدق ولا أتم من هذه الحكمة التى اهتدى اليها هذا البدوى الناشىء فى عصور الجهالة وانك لا تزن امة بميزان هذا البيت الا كنت على ثقة من السداد والاصابة .

هذه هى الحكمة الصادقة وهى كما ترى غير قاصرة على ايراد الحقيقة المسلم بها وانما هى الحقيقة كما تبصرها الفطرة الخصيبة والفطنة النافذة واللسان البليغ ، وبغير ذلك لا تكون الحكمة الا ملكا مشاعا للدهماء كحصباء الطريق يحرزها من يلتقطها .

والضرب الآخر حكمة مبتذلة أو مغشوشة معتملة . اشرفها ما كان من قبيل تحصيل الحاصل ، وكلها لا فضل فيها لقائل على قائل ولا لسابق على ناقل ، اذا قارنا بينها وبين الحكمة من ذلك الطراز كانت كمن يحفر الآبار للناس على شاطىء النهر الغزير ،

وكانت تلك كمن ينبط الماء من ينابيعه الصلدة لمن لوحهم الصدى والهجير . واحمق ممن يحفر البئر على شاطىء النهر من يروح ويغدو ينظم من اشباه البديهيات تلك النصائح الفاشية التى حفلت بها كتب التمرينات الابتدائية . « كالعلم نافع والصدق منج والبركة فى البكور واحترم الأستاذ تتقدم وفى العجلة الندامة وفى التأنى السلامة » وما الى هذه النصائح والامثال والحكم ـ ينظمها ليشتهر بالحكمة وليصيح من فوقها .

لى دولة الشعر دون العصر وائلة

مفاخرى حكمى فيها وامثالى !!

فهل يدرى القارىء من صاحب الحكم والامثال المخوز ؟؟ انه هو شوقى ، ثم هل يدرى ما حكمه وأمثاله التى استتبت له بها دوله الشعر ؟؟ هذه هى :

عليكم لواء العلم فالفوز تحته	**وليس اذا الاعلام خانت بخذال**
والعلم فى فضله أو فى معاخره	**ركن الممالك صدر الدولة الحالى**
يقل للعلم عند العارفين به	**ماتقدر النفس من حب واجلال**

* * *

بالعلم (تملك) الدنيا ونضرتها ولا نصيب من الدنيا لجهال

فليقارن القارىء بين هذه المفاخر وبين مفاخر التمرين الأول نحو « العلم نور . من عاشر العلماء وقر . تعلم العلم لحفظ الدرس . حلى النساء الذهب وحلى الرجال الأدب » وليسأل نفسه ماذا زاد عليها ملك الشعر المتفرد بدولته وأى ميسم يبدو عليها من مياسم نفسه وماذا من وحى الشاعرية والهام البصيرة ونهية العبقرية واصالتها ؟؟ اليس كل ما يميز بينهما الوزن والقافية ؟؟

ومن اركان ملكه أعزه الله هذه الجمل المركبة من ست كلمات فأكثر فليتلق الوحى أناس حجبوا عن صفاء الشاعرية وليسعيدوا :

المحســـنون هم اللبـــا ب وسائر النـاس النفـاية

ان القضـــــاء اذا رمى، دك القواعـــد من ثبير

والمال لا تجنى ثمار رؤسـه حتى يصيب من الرؤس مدبرا

الجـــد غاية كل لاه لاعب عنـد المنيـة يجزع المفراح

سر فى الهواء ولذ بناصية السهى

الموت لا يخفى عليـه ســـبيل

فلم ار غير حـكم الله حكما ولم ارد دون باب الله بابا

وان البر ابقى فى حيـــاة وابقى بعـد صــاحبه وثابا

ومن يعدل بحب الله شـيئا كحب المال ضل هوى وخابا

وما الرزق مجتنب حـرفة اذ الحظ لم يهجر المحترف

ما الدين الا تراث الناس قبلكم كل امرىء لأبيـــه تابع تال

ومن العقول جداول وجلامد ومن النفـوس حرائر واماء

أرم النصيحة غير هائب وقعهـا

ليس الشجاع الراى مثل جبـانه

ولعمرى لقد كانوا يقصون علينا ونحن أطفال حكاية تاجر الزجاج مع الحمال وهى الحكاية التى يضرب فيها المثل بالحكم الفاترة فكان يضحكنا أن نسمع التاجر الحصيف يرمى بحكمه الثلاث للحمال واحدة فى أثر واحدة فيفهمه متئدا أنه : « ان آل لك حد الراكب مثل الماشى أول له بتفشر . وان آل لك حد الغنى مثل الفقير اول له بتفشر » فكنا لا نظن هذه الحكم تساوى أجرة « شيلة » حتى راى شوقى أن يسمعنا نظما « ان آل لك حد الشجاع مثل الجبان أول له بتفشر » فآمنا يخرق ذلك الحمال الذى لم يقدر ما قبضه من الأجرة الغالية !!

وهل علم أحد أن المســـافر اذا آب فقد آب قبل أن يقول شوقى :

وكل مســافر سيؤب يوما اذا رزق الســلامة والايابا

ام علموا الحق حتى أخبرهم به مستغربا جهلهم سائلا اياهم :

أليس الحق ان العيش فان وان الحي غايتـــه الممــات

أليس كذلك أم ماذا بالله ؟؟

أم حكم أحد الاحلام الا حين علموا منه أن :

الحق ابلج كالصباح لنــاظر لو ان قوما حكموا الأحــلاما

* * *

ومن امثلة حكمته المفشوشة المعتملة قوله

لئن تمشى البلى تحت التراب به

لا يؤكل الليث الا وهو اشـــلاء

والبيت من قصيدة فى شكسبير . ومعناه ان جثــة شكسبير استعصت تحت التراب على البلى فلم يقدم عليها حتى مزقها ـ أى انه لم يمزقها حتى مزقها ولم يبلها حتى ابلاها ولم يتلفهــا حتى اتلفها ولم تتفتت هى حتى تفتتت . مهابة واجلالا !!.. وانه لمــا أكلها أكلها ولكن بعد تقسيمها كما ان الأسد لا يؤكل الا عضـــوا عضوا ..

تصفيق متواصل لشاعر المشرقين والمغربين والأرض والسماء، المحسن الى واحد من رعاياه بالتقدير والرثاء ، المنعم عليهم بالذكر والايماء .. تصفيقٌ متواصل .. لا بل ضحك تتجاوب به الاصداء، على القريحة الصماء ، والفطرة البليدة الخرساء : فطرة ملك الشعر وأمير الشعراء .

فياهذا . أن جثة شكسبير ليستبموضع العظمة منه لأنهــا فى الحياة جسد تفوقه فى الحسن والقوة اجساد كثيرة . وهى فى الموت رفات يبلى كما تبلى بقايا الأحياء من أكملها الى أدناها . ولو

جاز أن يعظم أحد بأن يقال ان الموت يتهيب جسده لكان ذلك اليق بأبطال الحروب اذ كانت أبدانهم موضع صلابة يتغلبون بها على اقرانهم . ولكنا مع هذا نرى المتنبى يقول فى ابى شجاع .

من لا تشـــابهه الاحياء فى شيم
أمسى تشـــابهه الأموات فى الرمم

وهو من نعلم محضا الحروب وابن الكريهة وحلس الخيل كانوا يلقبونه المجنون لاقدامه وتهجمه . فما بال من كان اللب والحجى فخره الوحيد يمدح بانه ذو جسد لا يبلى بعد موته ؟؟ وعلى انه لا معنى لأن يقال ان البلى تهيب أن يتمشى فيه الا بعد تقسيمه لان تمشيه فيه هو التقسيم . ثم لا معنى لأن يميز الليث بأنه لا يؤكل الا هو واشلاء لأن الشأن كذلك فى كل مأكول فالفأر أيضا لا يؤكل الا وهو اشلاء والدجاجة لا تؤكل الا وهى اشلاء بل حتى الأرز لا يؤكل الا وهو اشلاء ممضوغة وما من شيء يزدرد لقمة واحدة فيما نظن ويظن جميـــع الاكلين . وصاحبنا يرثى شـــاعرا فيخلط هذا الخلط فعافاه الله أى نوع من أنواع العظمة يفقهه ان كان لا يفقه العظمة التى يلتمسها منذ ثلث قرن من الزمان ؟؟ وأين من تقدير شكسبير من يرثيه رثاء اذا صح فيه فانه يصح فى كل حيوان ؟؟

على أن لشوقى دون هذا الحضيض حضيضا ينزل بالحـكمة اليه فيلحقها بوظيفة كتاب الاعلانات ويكلف الشعر أن يقول :

احذر التخمة ان كنت فهم	**ان عزرائيـــل فى حلق نهم**
واتق البرد فـكم خلق قتل	**من توقاه اتقى نصف العـلل**
اتخذ سكناك فى طلق الجواء	**بين شمس ونبـــات وهواء**
خيمة فى البيد خير من قصور	**تبخل الشمس عليها بالمرور**

وتقول : ان كانت هذه حكمة وشعراً فلم لا يكون كاتب « احترس من النشالين » و « ان أردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف القطر » نابغة يستملى الحكمة ويستمد وحى الشعر ويرتجل البلاغة ؟؟

وتكميلا للبيان المتقدم نورد هنا أبياتا يجوز أن يكون معناها مطروقا شائعا ويجوز ان يكون من جوامع الكلم ليتبين كيف يتناولها الشاعر المطبوع فينفث فيها حياته وكيف تعن للنظام المقلد كما هى ونختارها من معان ورد مثلها فى شعر المتنبى الذى يقتفى شوقى اثره ويطمع أن يجاريه . وهذا بعضها :

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والاقدام قتال

الف هذا الهواء اوقع فى الأنف
ـفس ان الحمام مر المذاق

من اطاق التماس شىء غلابا
واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

من يهن يسهل الهوان عليه
ما لجرح بميت ايلام

لا يعجبن مضيما حسن بزته
وهل تروق دفينا جودة الكفن

فهذه أبيات من رائع الحكمة تحمل فى طواياها حجة الطبع الدامغة وآية الفطنة البالغة ، وهى قد كان يمكن ان تقع لشوقى من ذخيرة الأحاديث المشاعة فتسمعها منه كعادته فى نقل هذه الأحاديث منظومة فاذا هى مثلا : (الجود مفقرة والاقدام مقتلة . الحمام مر المذاق . القوى مغتصب . من هان سهل عليه الهوان . لا يزين الذليل حسن البزة) وهكذا عهدنا الأمثال العامة فاذا شئت أن تزن الحكمتين بميزان الصحين فكلاهما صحيح ، ولكن ليست

الصحة الواقعية هى ما نطلب من النفس الملهمة والطبيعة المشرقة والسريرة العميقة وانما المصدر الذى تبجست منه والشخصية التى طبعتها بصورتها والقلب الذى خرجت من لدنه والحجة التى صيرتها مقنعة شافية هى بغيتنا من نجوى الالهام وهى التى يرتوى منها غليل السامع حين يسمع من بيت المتنبى « لولا المشقة ساد الناس كلهم » ثم يتمم المعنى لان هذه الشطرة التى لا تزيد البيت صحة تزيده حياة وتنبئنا وحدها بأن فى البيت حقيقة اقرب الينا وحجة الصق بنا وثمرة اجدى علينا من الحقائق الرياضية المجردة التى تمتحن بموازين الجمع والضرب ، وتأمل تعبيره عن الحياة بأنها « الف هذا الهواء » فهل ترى اصدق من هذا التعبير !! أليس المتنبى قد لمس به سر كل تركيب فى هذه الموجودات التى ليس كيانها الا عادة تألفها زمنا ثم تتبدلها ؟؟ ومثل ذلك يقال فى بقية الأبيات .

وصفوة القول ان الحكمة المبتذلة أيسر ما يتعاطاه النظامون لانها صوغ متاع مشاع على حين انهم لا يمسون الحكمة العالية مساسا ولن يقاربوها ولا اختلاسا . لانهم لا يملكون جوهرها ولا يقدرونه لو وقع لهم ولن يحسنوا مضاهاته وان اغتروا ببساطته وسهولته . وربما خدع بعض الناس فى بعض اقوالهم فخالوها من قبيل الحكمة العالية لما يبهرهم من رنين صياغتها وبريق طلائها فليعلم هؤلاء المحسنون الظن بحكمة النظامين ان أرقى ما يرتقون اليه ان يأتوا بكلمة مقبولة فى شئون المعيشة وفرق بعيد وبون شاسع بين المعرفة المعيشية والمعرفة الحيوية ، فأما الأولى فبنت المران والمكابدة تقرأ آلافا من امثالها فى كتب اللياقة ونصائح « اياك وحذار عليك » وأما الثانية ففيض مزايا الحياة النادرة وثمرة التفوق فى شمائلها المقدسة وضمائرها السرمدية . كتابها صفحات الاكوان وسريرة الانسان ومن ينابيعها تتفجر العقائد والأديان وتنبثق روح الرشد والبيان . الأولى لون من الوان البيئة المكتسبة والثانية قبس من نور الحياة الدائمة ، وشتان هذان شتان .

وربما اتفقت الحكمة المطبوعة لمن لا شك فى غلبة الصناعة عليه كالحريرى على ما اذكر حين يقول :

كل من الوجود يطلب صيدا غير ان الشباك مختلفات

ولكنها فلتات لا يقاس عليها

ولقد ذاع لشوقى بيت سوقى فظن انه سقط على كنز وطار به كأنه لا يصدق انه له أو كأنه يخشى أن ينازعه لفرحته به وهو

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

وكرر فقال

وانما الأمم الأخلاق ما بقيت فان تولت مضوا فى اثرها قدما

ثم كرر أيضا فى قوله

وليس بعامر بنيان قوم اذا اخلاقهم كانت خرابا

ثم كرره اذ يقول

ملك على الأخلاق كان بناؤه من نحت اولكم ومن صوانه

وكرره فى نشيده وفى قصائد أخرى وكل هذا الفرح بمعنى يعد من تحصيل الحاصل ان كان له مدلول ، فليس يقول لك ما يستحق أن تصغى اليه من يخبرك بأن الأخلاق الصالحة ملاك صلاح الاجتماع وقوام الأمم . ومن كان يقرر معنى يعكس فيكون عكسه ظاهر البطلان ويطرد فلا يزيد على ما هو متعارف فانما يقرر البديهيات ويدخل فيما نسميه بالحقائق الرياضية او حقائق التمرينات الأولية .

ورحم الله القناعة ، لقد كان ابن سودون المجنون يضحك الناس فى بائيته بمثل هذه الحكم :

عجب عجب عجب عجب بقر تمشى ولها ذنب
لا تغضب يوما ان شتمت والناس اذا شتموا غضبوا

الى ان يقول

النـــاقة لا منقـــار لهـــا والـــوزة ليس لهـــا قتب

وكثيرا فى قصيدته من حكمة كهذه كان أقصى مناه ان يقال فيها انها سخيفة ظريفة . وها هنا شاعر خلا كلامه من هـذا الظرف ولكنه يطمع بالسخف البحت ان يستأثر بدولة الحكم والأمثال .

وقلنا ان كان للبيت مدلول ، لأن البيت فى الحقيقة لا مدلول له . فلو انك حذفت كلمة الاخلاق وجعلت مكانها أصفارا لما نقص من معناه شيء . لأن هذه الكلمة لا تؤدى معنى محدودا فى الذهن فقد تكون بمعنى الآداب كالصـــدق والسخاء وحسن المعـاشرة والوداعة والحلم ، وقد يفهم منها نقيض ذلك من الطبـــاع كالعناد والمراءاة والدهاء والبطش وهو ما يفهم أحيانا من كلام الافرنج حين يصفون رجلا بأنه من ذوى الطبائع البارزة والحيوية المتينة فأى المعنيين يقصد شوقى ؟؟ ان من الأمم ذوات الحيوية الغلابة من لا تعرف للصدق معنى وقد تعد الكذب والسرقة فضلا وهى مع ذلك من تأصل مادة الحيـــاة فيها واحتوائهـــا على بواعث القوة والسيادة بحيث لا يخشى عليها الانقراض العـــاجل أو البوار » والتاريخ غاص بسير هذه الأمم . وان منها لمـــا تحمد سجاياه ثم لا تلفيه من القـــوة على نصيب وافر فليقل لنا شوقى ما غناه بيته ان كان لا يبين لنا ما لونها كما قال بنو اسرائيل .

ولقـــد أضحكنا مرة احـــد الثرائرة الذين يتلقفون من الكلام ما لا يفقهون فقال لنا ان البيت الحكيم ما وافق هوى من نفوس النـــاس وان فى ذيوع بيت شـــوقى لدليلا على قيمته . فقلت له يا صاح : اشيع من بيت حكيمك هذا بيت ابن الوردى »

لا تقل اصلى وفصلى ابدا انما اصل الفتى ماقد حصل

فان كان لهذا الشعر قيمته فهنيئا لنا !! اننا أمة من ثلاثة عشر مليون حكيم بل هنيئـــا للانســـانية فان الشمس لا تطلع الا على الحكماء من ابنائها »

رثاء الأميرة فاطمة

أقسم بالكعبة ذات الاستار ، وبقبر النبى المختار . أقسم بفاطمة الزهراء ، ومجلسها الوضاء . أقسم بالمشهد الحسينى والضريح الزينبى ومقام السيد البدوى ومزار كل شريف من ولد فاطمة وعلى . أقسم بالعترة النبوية ومراقدها الزكية ، ما ان دفنوا بالأمس الا نيرة . .

بهذا القسم ، أو على الاصح ، بهذه الأقسام استهل شوقى رثاءه للأميرة المحسنة فاطمة بنت اسماعيل . وهى منثور قوله :

حلفت بالمستترة والروضة المعطرة
ومجلس الزهراء فى الـ حظائر المنورة
مراقد السلالة الطـ ـيبة المطهرة
ما انزلوا الى الثرى بالأمس الا نيرة

ولولا أن الأمر أظهر من أن يحتاج الى قسم لأقسمت له بكل قبلة ومقام ، وبكل نبى وامام ، انه لنسيج وحده فى فكاهة الرثاء ، ان كان للرثاء فكاهة ، ولم لعمر الله لا يكون له فكاهة وقد أرانا شوقى فى مراثيه اجمع فنا مبتدعا منه وطفق يبكى من يبكيهم كافة بنمط يلتبس عليك فيه الجد بالمزح ، ويقترن العبث بالمدح — أفرأيت احدا قط يقسم لك على صدقه فى تعداد مناقب مرثيه كأنه يخشى التكذيب أو يتقى ان يحمل كلامه محمل الرياء والمجانة

غيرِ شوقى ؟؟ واذا اطرد هذا فى جميع شعره فلم لا نحسن الظن ونتلقاه منه على أنه مذهب جديد فى بابه ونتخذ له اسما فى أصـول البلاغة مصطلحا عليه : فكاهة الرثاء مثلا كما قلنا او اسما آخر مقبولا لديه ان لم ترقه هذه التسمية ، ثم نورد الشواهد عليه من مراثيه وانها لكثيرة طويلة بحمد الله الذى لا يحمـد على المكروه سواه ؟؟

وسنرى الذين يمارون فى اختراع شوقى لهذا الباب واطراده فى قصائده جميعا وفى أبيـات القصيـدة الواحدة ، نقول سنريهم انها ليست بفلتة نظم أو هفوة خاطر ولكنها اصول يرعاها وأسوم يعيها ولا ينساها . والا فلو كان حذره من التكذيب واتقاؤه تهمة المداجاة فلتة سبقت بها قريحته فى مطلع القصيدة فماذا كان يدعوه الى أن يقول بعده :

دع الجنود والبنو　　　د والوفود المحضرد
وكـل دمع كذب　　　ولوعـة مزورة

الا ان الأمر بين لمن ينصفون ... فالشاعر بدأ قصيدته بالقسم فأشعرنا الريب واتهم نفسه فى ثنائه ، ثم عاد فذكر الدمع الكذب واللوعة المزورة فأرانا حكمة ذلك القسم وانه لم يبـدر منه جهلا بفنون الرثاء وانما تفننا واختراعا لم يسبق اليه ، ونرجو أن لا يبارى فيه ... فأما أن يسمى هذا الاختراع الجديد رثاء كما عهـدنا الرثاء القـديم فهذا غبن لشاعرنا وتسمية للأشياء بغير أسمائها . فلابد اذن من أن ينتقى له اسم مبتكر طريف وعليـه هو تحرير قواعده وضبط أصوله ورسم نماذجه .

* * *

عجيب والله امر هذا الرجل !! ما رأينا خطأ اشبه بالتعمـد ولا توقرا أقرب الى المجانة من هذائه فى رثائه . وما التبس الهزل بالاجلال قط التباسهما فى تأبينه وبكائه . فما كان أغناه عن الحلف ومبرات الأميرة أشهر من ان يرتاب فيها او يتنازع عليها ؟؟ وهبها

لم تكن كذلك فهل جرت العادة أن تؤيد المآثر اذا لم يصدقها الناس بالايمان او البراهين فى قصائد الرثاء ؟؟ نتجاوز هـذا ونساله : ما باله يفترض ان النـاس تبـكى على الأميرة بدمع كذب ولوعة مزورة ؟؟ أضرورى هذا ليقول بعـده ان الدموع الكاذبة لا تغنى عنها وانه .

لا ينفـع الميت سـوى صالحـة مدخـرة

ايقول ذلك لأن الدموع اذا كانت صادقة واللوعة خالصة نفعت الميت واغنته عن الصالحه المدخرة ؟؟ فاذا كان التباكى كالبكاء فى هذا المعنى فلم هذا السخف الذى يغض من المبكية والبـاكين وليس له من جـدوى ؟ ؟

ونحن ما كنا لنوسع لهذه القصيدة محلا من النقد لولا اننا نريد ان يلمس ضعف تمييز شـوقى عن التفـرقة بين حالات النفوس ضعفا لا تنفرد به قصيدة دون قصـيدة ، ولولا اننا سمعنا بيتين منها يرددان فى معرض الاستحسـان فأحببنـا أن نمسح الرغو عن محضهما لمن عساه أن يكون على رأس المستحسنين لهما . فالبيت الأول وهو .

فاطـم من يولـد يمت المهـد جسر المقـبرة

أعجبهم منه « جسر المقبرة » وهو معنى متوارد عليه . نذكر من السابقين اليه أبا العتاهية حيث يقول :

وعبروا الدنيـا الى غيرها فانما الدنيـا لهم معـبر

وفصله المعرى وقسمه فقال :

حيـاة كجسر بين موتين : اول وثان،وفقد المرء انيعبر الجسر

وهو اوضح واوجز فى قول محمود الوراق :

اغتنم غفلة المنيـة واعلم انما الشيب للمنيـة جسر

فالذى صنعه شوقى هو انه سرقه وشوهه كعـادته لأنه جعل المرء يخرج من المهد الى المقبرة وما نظن الناس يموتون كلهم اطفالا !!

والصحيح ان المهد أول مراحل الجسر والحياة بمراحلها المتتالية بقيته .

والبيت الثاني أو هو بيت القصيد في رايهم قوله :

يلفظهـــا حنظـــلة   كانت بفيـــه ســـكرة

يعني الروح . وقد كان يخطر لنا أن يمتدح كل بيت في القصيدة خلا هذا البيت ، وهذا من الغرائب في تضاد الأذواق وانتكاسها . فقد دل به شوقي على سقم تعبيره واراد ان يقول ان المرء يحب الحياة ويشعر بمرارة فراقها عند الموت فعكس المراد لأنه كنى عن صعوبة ترك الحياة بلفظ الحنظلة ولفظها محبوب يرتاح الانسان اليه لما فيه من ازالة المرارة عن فمه ولو انه قال :

يلفظهـــا ســـكرة   كانت بفيـــه حنظـــلة

لكان هذا الصواب في تمثيل تأفف الانسان من الحياة حتى اذا ادركه الموت حلا مذاقها لديه وكره ان يلفظها كأنها « السكرة » !! ولكننا نخال صاحبنا كمن يمشي على يديه أو ينام على بطنه فيرى العالم معكوسا ...

ومن ترهات شوقي التي يخرجها مخرج الحكم قوله من هذه القصيدة :

وكل نفـس في غـــد   ميتـــة فمنشـــرة

فالنفوس لا تموت في غد فحسب ولقد ماتت نفوس لا تحصى امس واول من امس وقبل ذلك بآلاف السنين وهي تموت اليوم بل الساعة . ولكن الرجل اشتهى ان يقول : ان كل نفس تموت منشرة غدا ــ فخانه الاداء وخذلته العبارة وهي لو استقامت له لما جاء بطائل .

واما سائر أبيات القصيدة فلا فرق بين اثباتها وانتقادها وحسبنا ما شغلناه من حيز هذه الصفحات بنقل شعر شوقي فلا نضرب في الهواء ولا نطرح في البوتقة الحصاء ، والشعر اذا تساوى فيه النقد والاغضاء فخير منه الصحائف البيضاء .

ماهذا يا أبا عمرو؟؟

مصطفى افندى الرافعى رجل ضيق الفكر مدرع الوجه يركبه راسه مراكب يتريث دونها الحصفاء احيانا وكثيرا ما يخطئون السداد بتريثهم وطول اناتهم . وطالما نفعه التطوح وابلغه كل اربه اوجله اذ يدعى الدعاوى العريضة على الأمة وعلى من لا يستطيع تكذيبه فتجوز دعواه وينق الحافه عند من ليس يكرثهم أن يخدعوا به . بيد أن الاعتساف اذا كان رائده الخرق فى الراى وشيك أن يوقع صاحبه فى الزلل احدى المرار فيضيع عليه ما لو علم انه مضيعه لفدام بكل ما فى دماغه من هوس وما فى لسانه من كذب ، وكذلك فعل ضيق الفكر وركوب الراس بمصطفى الرافعى فحقٌ علينا أن نفهمه خطر مركبه وأن قدميه أسلس مقادا من رأسه لعله يبدل المطية ويصلح الشكيمة .

أصدرنا الجزء الأول من هذا الكتاب فكان مما نقدناه فيه نشيد شوقى وهو بعض ما ننظر اليه من شعره وجماع ما ينظر اليه الرافعى لأنه لا يبالى اذا سقط التشيد أن تحسب كل خرزة من بضاعة شوقى جوهرة وتقلب كل حنظلة من كلماته سكرة ! ! ولكنه مع هذا اللجاج المحدود والولع المحصور لم يفوق اليه من عنده مصمية ولا مدمية وسرق بل انتهب منا الكنانة والذخيرة فلم يدع فى طبعة نشيده الثانية وجها من أوجه النقد التى اتينا بها الا انتزعه وسدده وفاته ان القذيفة لا يرمى بها مرتين ولا تصيب من منزعين .

ولقد احسن بنا الظن وأساءه فلم يستغن عنا ولم يقدر فينا التنبه الى صنيعه ، وما له عافاه الله يقدر فينا السكوت عن سطوه علينا ونحن يسوءنا أن يسرق الناس من غيرنا ولا نرضى اجتراءهم على غير سياجنا ؟ ؟

وليته اعتدل أو ترفق فيعذر بعض الاعذار ولكنه اذن لنفسه بغاية الافراط ولا يريد أن يأذن لنا بسوى الغاية من التفريط . فبعض هذا يا أبا درويش أو يا أبا السامى كما تكنى نفسك أو يا أبا عمرو كما تقول للجنة الأغانى فى خطابك فان صاحب المساكين حرى أن لا يغتصب بالسيف كما صنعت وفى رائعة النهار .

قلنا فى نقد نشيد شوقى ان النشيد القومى يجب « أن لا يكون وعظا بل حماسة ونخوة وأن يكون موضوعا على لسان الشعب » .

فرجع صاحبنا أبو عمرو الى نشيده فحور منه ما استطاع بضمير المتكلم فقال :

الى العلا فى كل جيل وزمن   فلن يموت مجدنا كلا ولن

وقد كان هذا البيت فى الطبعة الأولى :

الى العلا فى كل عصر وزمن   فلن يموت مجد مصر لا ولن

ولما ان طوى هذا الضمير ووثق من مواراته ونفض عن يديه ترابه وقف بين الناس كأن لم يصنع شيئا وصاح يؤنب شوقى لقوله :

على الأخلاق خطو الملك وابنوا   الخ .. الخ .

ويسأله : « وممن هذا الوعظ يا ترى . أمن الشعب لنفسه أم من شوقى للشعب ؟ ص ٧٩ » كما سألنا من قبل : « فمن الذى يأمر المصريين هنا ويناقشهم هذه المناقشة !! » وكما أخذنا عليه « أنه لمتوطأ مطية الفلسفة والمواعظ » .

وانكرنا من نشيد شوقى أنه « قد حسب اننا سنظل طوال الدهر كدابنا فى يومنا هذا فنظم لنا نشيدا لا نتخطى به فى جميع

العصور ان يتهيأ مكاننا وان لا نبرح نشرع فى التمهيد ونأخذ فى الاستعداد ونبدأ برسم خطط الملك ونهم بتشييد الأركان » .

فجاء أبو عمر البيغاء فقال : « واذا قيل اليوم لبنى مصر هيأ مهدوا للملك ومكانكم تهيأ فهل يقال لهم هذا بعد مائة سنة وبعد الف سنة وما شاء الله والى آخر الدنيا ولا يزالون الدهر كله فى تمهيد ؟ » ص ٧٨ .

وعقبنا على قول شوقى عن الشمس : « ألم تك تاج أو لكم مليا ؟ » بأن الشمس « لم تكن تاج الفراعنة وانما كانت معبودا لهم وكانوا يزعمون أنهم من سلالتها » .

فعلمت البيغاء ايضا « أن زعم شوقى أن هذه الشمس كانت تاج اولية المصريين خطأ بين وانما كانوا ينتسبون اليها ويعبدونها » ص ٧٩ .

فلله ما أعلم البيغاوات بالتاريخ اذا لقنته !!

وعبنا على شوقى تخفيف الهمزات وانه صير « سئلت » سيلت و « تهيأ » تهيا و « شيئا » شيا .

فلم ينسها أبو عمرو وجعل يقول : « وهذا التسهيل فى همزة سيلت لم يفهمه الا القليل وقد لقينا بالسؤال عنه طوائف من الأساتذة فما أدركوه وأصل الكلمة سئلت » ص ٨٢ .

فمنذ الآن له مندوحة عن سؤال طوائف الأساتذة الذين لا يدركون ما يدركه هو بهذه السهولة !!

وروينا أن بعض الملحنين والظرفاء يستقبحون تلحين تطاول مهدهم عزا و « فخرا » الخ الخ .

لأن التنوين لابد أن يسقط فى الانشاد فيخلفه المد وترجيع الصوت . قالوا « واذا انتهى المنشد مثلا الى كلمة (فخرا) ومد

بها صوته ورجهه فاى رائحة تفوح منها ! » ثم قلنا : « ولسنا نحن ممن يبالى بهذا النوع من النقد ولكننا نعذر المنشد » .

فروى هو كذلك عن الأدباء والملحنين انهم : « تنادوا بقوله فخرا وجعلوا الكلمة معرض نوادرهم وقالوا انهـا مما لا يذوقه احـد الشعراء من طعم كلامه » . ثم قال كما قلنا ولسنا بسبيل هـذا السخف فلندعه .

اتراه كان يدعه لو كنا نحن لم ندعه ؟؟

واستضعفنا هذه المقطوعة :

لنا الهرم الذى صحب الزمانا ومن حـــدثانه اخذ الامانا
ونحن بنو السنا العـالى نمانا اوائل علمـــوا الأمم الرقيـا

لأن الناظم ساقها مساقا ليس فيه « من نشوة الفخر ما تهتز له النفوس » .

فاستضعفها صدانا الواقف لنا بالمرصاد وتلفت متعجبا : « كيف غفل شوقى عن أن يحتال للفخر بهذا المعنى الضخم » ص ٨٣ .

فأساله بالله ثم اساله كيف غفل أيها الراصد اليقظان !!

ونقلنا عن بعض أعضاء اللجنة انه لما تليت هذه المقطوعة :

على الأخلاق خطوا الملك وابنـوا
فليس وراءها للعـــــز ركن
أليس لكم بوادى النيل عدن
... الخ الخ

قال : « ان البيت الثانى منبتر وسال : ما العلاقة بين النصح ببناء الملك على الاخلاق وتشبيه وادى النيل بعدن والكوثر » .

فترك هو القائل والراوى وزوى وجهه عنهما وصاح وحده ! « كلام مقطوع عما قبله » . وسأل من لدنه سؤاله : « فاذا كان لهم بوادى النيل عدن وكوثرها فماذا ؟ » ص ٨٠ .

ونقلنا عن آخر نقده لهذا البيت :

جعلنا مصر ملة ذى الجلال والفينـا الصليب على الهلال

ووافقناه فقلنا : « وهو انتقاد سديد فاننا ان سمينا الوطن ملة ذى الجلال فماذا يكون الاسلام والمسيحية واليهودية ؟! » .

فوضع اصابعه فى اذنيه ـ أو لم يضعهما ـ وأصر وولى واستكبر استكبارا وكأنه لم يسمع بهذا النقد فراح يقول :

فاذا : « زعم انه يريد بملة ذى الجلال الدين مطلقا قلنا له فان القوم على ذلك لا يزالون بين مسلمين ومسيحيين واسرائيليين وكل هذه الاديان ملة ذى الجلال » ص ٨٤ .

هذا كله ولا اشارة الى الديوان ولا كلمة يستشف منها أن احدا تقدمه الى هذا النقد بل لعله قصد الى ادعائه عنوة فكتب على الرسالة أنها طبعت فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ ونسى لغفلة ذهنه أنه ضمنها فى صفحة ٦٧ كتابا للاستاذ منصور افنـدى عـوض مؤرخا فى ١١ ديسمبر ...

فهـذا الخلق البغيض ونظائره من جرثومته هى التى تملأ نفو سنا تقززا وعزوفا من ادب الجيل الماضى وادبائه ، ومن صناعة من ينتسبون اليها ولكن ليس لها ما لأحقر الصناعات من حرم يرعى ودستور يفاء اليه ووازع يوقف عند حده ـ ارجحهم منها سـهما

اجمعهم فيها بين استخذاء الجبن وصفاقة الادعاء ، وارفعهم فيها اسما اطبعهم على ضعة الحيلة وصنوف الرياء ، وشعارهم جميعا نقيضان من شعور بالعجز وخيلاء ، وملق واستعلاء : صناعة لا واجب لها ولا حقوق لذويها ولا نعرف غيرها من صناعة بلا واجب ولا حقوق ، وما على المحترف بها بأس من السماجة والافتراء ؛ وانما الباس كل الباس عليه من المروءة والحياء .

ولقد اتصلت بنا عن عرض كلمات نبس بها بعضهم فى جلسة لجنة الاغانى فقيدناها لهم وأبينا لأنفسنا أن ندخلها فى كلامنا مع أنها أهون وجوه النقد التى اخذناها على النشيد ومع اننا تحدثنا بها لاصحابنا ليلة اطلعنا عليه قبل توزيعه على الصحف وقبل ان نسمع حوار اللجنة بصدده . وهذا رجل لا يستحى أن يسم نفسه على غلاف رسالته «بنابغه كتاب العربية وزهرة شعرائها» يعمد الى نقد مطبوع لم يفرغ الحديث فيه ولم ينقطع صاحبه عن اتمامه فينتحله جملة ولا يفلت منه كبيرة ولا صغيرة حتى بسميتنا مشاهير المذهب العتيق بالاصنام(١) ثم لا يرى ان عليه بعد ذلك ان يوحى بفرد كلمة اليه ولو من باب التاريخ لحوادث هذه الاناشيد ، كاننا حين كتبنا نقدنا فى مصر كان هو يكتب رسالته فى أقاصى الصين أو أطراف السويد ولا ندرى وقد وثق من وجهه بهذه الصلابة من أين له الثقة بالتهاون منها والهضيمة ؟

ولما اراد أن يعتمد على نفسه فى وجه من أوجه النقد لم نذكره وظن انه فاتنا أبلغ فى الفند والسخف فنعى على نشيد شوقى خلوه

---

(١) قال فى صفحة ٦٩ « جهد اكبرهم ان يقرد اصنام الطبقة التى هم دونها ليكونوا بذلك اصناما للطبقة التى هى دونهم » وقال فى صفحة ٧٠ « وكم من صنم قد تغلغل باطله ونزفت شياطينه وانفرعت رذائله فاذا ذهبت تصلح منه التوى عليك »

من لفظتى الحرية والاستقلال (ص ٧٤) فمتى رأى هذا الأعمه أمة تتغنى بانها ليست ممن حرموا الحرية والاستقلال وتتيه فى مفاخرها بما ليس يتحقق لها كيان بدونه .

ايه يا خفافيش الأدب . اغثيتم نفوسنا أغثى الله نفوسكم الضئيلة ، لا هوادة بعد اليوم . السوط فى اليد وجلودكم لمثل هذا السوط خلقت . وسنفرغ لكم أيها الثقلان فأكثروا من مساوئكم فانكم بهذه المساوىء تعملون للأدب والحقيقة أضعاف ما عملت لها حسناتكم ان كانت لكم حسنة يحسها الأدب والحقيقة .

عباس محمود العقاد

صنم الألاعيب (٢)

كتبنا كلمة أولى عن شكرى فى الجزء السابق أرضت اثنين :
أهل المذهب العتيق البالى الذين كانوا يأبون الا ان يعدوا شكرى من دعاة الجديد والا أن يحسبوه علينا ويأخذونا بشعره ولكن هؤلاء سخطوا من حيث رضوا ولم يرقهم أن يرونا نميط الأذى عن المذهب الجديد وننفى عنه وخامة شكرى . وليس يعنينا أمرهم ولا نحن نبالى سخطهم من رضاهم فانهم فى رأينا جثث محنطة .

وثانى فريقى الراضين المتعلمون من أهـــل البصر والاتزان وسلامة الذوق والشبان السائرون على الدرب وهم من نرجوهم لصلاح الأدب ونفض غبار الماضى عنه . ولهم لا لسواهم كلامنا .

أما فئة الساخطين فمؤلفة ممن يحملون على أكتافهم رءوسا وكأنما حملوا معدة أخرى لا عقلا يفكر وذهنا ينظر ويتدبر . وهم يطالبوننا ان لا نشيم الخير من احد وأن لا يكون لنا رجاء فى مخلوق مخافة أن يخيب هذا الأمل فنكون قد تناقضنا ووقعنا فى محظور وجئنا أمرا يلزمنا عاره ويبقى وسمه !! فياويحنا لقد اسخطنا والله هذه المعدات الضاغية وهجنا ثعالبها اللاحسة بنقدنا شكرى الذى « وضع أهم أحجار النهضة وضحى فى سبيلها شخصيته وشهرته » كما يقولون . ولكن لا ضير علينا من غضبهم ولا داعى لهذا الغضب فانا لا ننكر أن شكرى « ضحى بشخصيته » !

مسكين هذا الصنم !! لا يعرف لبكمه ماذا يقول . ويتطوع المشعفون عليه للدفاع عنه فبجيء دفاعهم اقتل له من نقدنا . وينقمون منا انا جعلناه صنم الالاعيب وهم يسخرون منه ويتضاحكون به . وماذا يجدى ذودهم عنه ؟ لقد كنا وكان شكرى نخلص له النصح ونمحضه الراى والسداد ونشجعه ونغتبط بما نراه من تململه من قيود العهد القديم ونعتد ذلك منه رغبة صادقة فى التحرر ونجرى مع الامل فيه فهل كان علينا ان نظل العمر طامعين فى غير مطمع ؟ ثم اعملناه على شىء من اليأس منه ثم تخشنا له وعنفنا عليه فى الزجر فلم يغن لا الاغضاء ولا اللين ولا العنف وظل سادرا راكبا راسه حتى احفاه ؟

ولقد كنا فى كل ما كتبناه عنه فى اول عهده بقرض الشعر لا نغفل الى جانب التشجيع أن ننبهه الى عيوبه فقلنا عنه لما صدر الجزء الثانى من ديوانه « انه يطأ مفاخر الصنعة بقدميه » وانه « لا يتعهد كلامه بتهذيب أو تنقيح ولا يبالى اى ثوب البس معانيه » وعللنا يومئذ جموحه هذا بأنه « نتيجة طبيعية لتمادى الشعراء فى المنهج القديم ولجاجتهم فى احتذاء المثال العتيق » اى انه نتيجة رد فعل فهو تطوح وتطليق للعقل يقابلهما من الجهة الأخرى غطيط المقلدين فى كهف الماضى وكان ذلك فى ١٩١٣ فهل يرى احد ان رأى اليوم لا يتفق مع رأى الأمس ان صح أن هناك رايين ؟ كلا لقد أدينا الواجب له وللأدب قديما ولكنا اليوم نؤدى حق الادب وحده .

ومن المضحكات أن رسالة وردتنا بدون توقيع يقول فيها كاتبها « انك تتهم شكرى بالجنون وانت مثله والجنون فى شعرك كثير » وما رمينا أحدا بالجنون بل قلنا ان ذهن شكرى متجه ابدا الى هذا الخاطر مكتظ به وان لهذا الاتجاه دلالته . على أن كوني مجنونا لا يشفع لشكرى ولا لسواه فى شىء جل أو دق وما اتهمنا شكرى ولا تقولنا عليه ولكنه هو الذى يتهم نفسه بالجنون . ألم يقل فى كتابه « الاعترافات صفحة ٧١ » :

« انى أسيء الظن بكل شيء سواء الحميد والذميم فلا غرو اذا رأيت فى الضيـاء ظلاما ورأيت فى سواده ما يخلقه سوء الظن من الأوهام التى هى كخيالات الشياطين فى ظلام الليل . ومن بلغ به سوء الظن هذا المبلغ يسمع همس شياطينه فى اذنه فاذا تلفت الى يمينه وجد سوء الظن يهمس فى أذنه اليمنى واذا تلفت الى يساره وجد سوء الظن يهمس فى اذنه اليسرى ومن العجيب أن هـذه الشياطين التى يخلقها سوء الظن لا تخفى قبحها لتخدعنا بل تظهر قبحها فى حركات وجهها وجسمها (! !) هذه الشياطين هى الخواطر التى يهيجها سوء الظن تمرح فى ظلامه كما يمرح الوطواط فى الظلام وتؤدى بالمرء الى الجنون (نعم قد عانيت من أجلها الجنون وجرعت كأسه المرة وبلغت اعماقه ولا أعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه . ذلك الجنون الذى لا ينسى المرء الفكر والامانى) اهـ .

فهل رأيت أيها القارىء أننا فيما كتبناه عن شكرى اكثر اعتدالا منه هو نفسه واننا اذا كنا نبالغ فى شيء ففى الحذر والاحتياط وفى التحرز من التعبير بأكثر من المراد وفى فرط توخينا للقصد وتحرينا للضبط والدقة ؟

ولقد قلنا ان شكرى بدأ يجرب ما يسمونه هذيان الحواس واوردنا شاهدا على ذلك وفى النبذة التى اقتطفناها من «الاعترافات» شاهد آخر فانه فيها يقول بأصرح لفظ « ومن العجيب ان هـذه الشياطين لا تخفى قبحها بل تظهر قبحها فى (حركات وجهها وجسمها) وليس هذا من المجاز فى شيء فان صاحبنا شكرى لم يدع سبيلا الى هذا الفرض والتأويل فقد سد بابه باعلان دهشته والجهر بعجبه واستغرابه حدوث ذلك .

وهو القائل أيضا فى اعترافاته ص ١٠ .

« ويسمع المحب انغاما وألحانا (غريبة) لا يسمعها غيره وليس لها وجود ويرى أشكالا هندسية بديعة لا تسمع عنها فى كتب

الهندسة ويرى أزهارا خيالية لا يعرفها الباحثون فى علم النبات » فهو يسمع ويرى ما يعلم أن لا وجود له وفى هذا تأييد لقوله فى وصف جنونه « ولا اعنى جنون من لا يحس جنونه بل أعنى جنون من يحس جنونه ويفكر فيه ويعرف أسبابه ونتائجه » .

وشكرى قديم العهد بالشياطين والعفاريت قال فى ص ٢١ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثر الاعتقاد بالخرافات وكنت التمس العجائز من النساء اسمع قصصهن الخرافية (حتى صارت) هذه القصص تملأ كل ناحية من نواحى عقلى (وحتى صارت) عالما كبيرا ملؤه السحر والعفاريت وحتى صارت العفاريت حولى تحل حيث اكون . واذكر انى رأيت مرة عفريتا على سطح منزلنا وكان أسود الجسم شخصه مثل شخص الانسان ولكن جسمه يعلوه الشعر الكثيف » .

وليس ذلك فى صغره فقط بل هو الآن بعد أن كبر وبلغ أشده كما كان فى حداثته .

انظر قوله فى ص ٢٥ من الاعترافات :

« وفى بعض الاحايين اخاف خوفا شديدا أن يظهر لى ابليس . فأتلفت كى اثق انه لم يظهر بعد وفى بعض الاحايين أعتقد وجود العفاريت والجن كما كنت أعتقد فى أيام صغرى لقد سمعت البارحة القطط تعوى وتصرخ مثل عواء (المجانين) أو عواء الأرواح الحائرة المعذبة (التى تتخذ الليل جلبابا ثم تفرغ فى ذلك العواء ما تقاسيه من العذاب فلما سمعت عواء القطط كأنها الخرس اذا حاولت الكلام لم اشك فى انها عفاريت من الجن واصابتنى رعدة شديدة .

وتأمل تدقيقه فى وصف هذه الأرواح الحائرة التى يذكرها وكيف انه لا يجد تمثيلا لمواء القطط ــ لا عوائها ــ الا بعواء العفاريت وكذلك كل صوت فى سمعه قال فى ص ٢٦ :

« وقد سمعت مرة عواء الخنازير كأنها عواء جنية أصابها الموت فى ولدها » وهو بعد يلتذ المرعبات كمنظر النار تأكل الدور قال فى ص ٣٤ « اذكر انى رأيت مرة حريقا هائلا فى جنح من الليل فهيج فى قلبى عواطفه ولم يهيج سطح العاطفة بل هيج اعماقها وجعلت أشعر بالجلال جلال ذلك المنظر الهائل وبرقت عيناى حتى كدت ارى بريقها وصارت النار تأكل المنازل فتنهدم وتنهال وتتصاعد السنة النار والدخان يعلوها والظلام حولنا وعلى أوجهنا نور يزيدها شحوبا وكنت أحس لفح تلك النار فى خيالى وذهنى .. هذه هى المناظر التى (التذها) ومن الغريب انى يخيل لى أن هــذه المناظر وما تبعثه من الاحســاس تعين المرء على أن يفهم الحيــاة ومعرفة سرها » .

ثم تصور شكرى واقعا له ما يصفه هنا فى اعترافاته ص ٧٢ :

« ما رأيت اثنين يتساران الا ظننت انهما يذكرانى بسوء .. أو أحدا ينظر الى الا حسبته يحدث نفسه عنى بسوء وانى لأسىء ظنى الآن بمن سيقرأ هذا الكتاب وما رأيت أحدا ينظر فى ثيــابى الا حسبته رأى فيها شيئا خفى عنى وما رأيت أحدا ينظر فى وجهى الا حسبته راى فيه شيئا قذرا وما رأيت أحدا عابسا الا حسبته يعبس من أجلى بغضا أو حقدا وما رأيت أحدا باسما الا حسبته يسخر منى ويهزأ بى وما سمعت ضحكا لم اعرف سببه الا خجلت خجلا شديدا وحسبتنى غرضا لذلك الضحك (ومن أجل ذلك صرت اعبس فى وجه كل من يبسم فى وجهى من الناس الا من عرفتة

سبب ابتسامه وأحيانا أعرف سبب ابتسامه فلا يمنعني ذلك من اساءة الظن به)

وليست خواطر الجنون وسوء الظن والعفاريت كل ما يملأ ذهن شكرى فان فيه ناحية يشغلها خاطر الاجرام .

قال فى ص ٧٥ من الاعترافات :

« الفزع من التهم ضرب من سوء الظن والجبن لقد رأيت فى الحلم البارحة أنى اتهمت (كذبا) باتيان جريمة ولم يكن عندى ما ادفع به التهمة فصرت أصيح أمام القاضى وأقول أنا برىء والقاضى يهز رأسه ولا يصدقنى والشاهد الكاذب يبتسم ابتساما خبيثا ثم رأيت بعد ذلك انى أساق للسجن والاعدام انه لحلم يفزع .. انى لأذكر أنى اتهمت (زورا وبهتانا) فى أيام صغرى بسرقة علبــة من الحلوى ولا أزال أذكر ما نالنى من الفزع أن تكون الحياة كلها تهم (كذا) باطلة .. على أنه من (جنون) اليأس والفزع والجبن توقع ما لم يحدث من المصائب وقتل النفس بهذا التوقع » .

ولا ينبغى أن تفوت القارىء ملاحظة تنبيهه دائما الى أن هذه التهم مزورة كاذبة حتى التى حلم بها فان لهذا الخوف منــه أن يصدق القارىء ما يرويه معنى ولا شك .

وقال فى ص ٨٥ : « يحسب كثير ممن لم يتعود التفكير ان الناس منقسمون بفطرتهم الى قسمين فهم اما مجرمون واما أبرياء وهذا نظر فاسد فان فى نفس القديس جرثومة الاجرام .. اى الناس لم تخطر بباله خواطر الاجرام ولم يفزع مما يتحرك فى نفسه من حشرات الشر .. لقد مرت بى ساعات كنت أحس فيها تلك اللذة التى تدفع المرء الى الشر فان الجريمة مثل السراب اللامع والحياة كالصحراء القاتلة الحرارة والمرء فيها كالمصحر الظمآن يليح له سراب الشر (بضيائه) فيريد أن يروى ظمأه وينقع غلته أنا اليوم برىء ولكن ما يدرينى ربما كنت فى غد مجرما ربما تحركت عوامل الشر التى فى

نفسى .. وكنت اشفق على المجـرمين واملأ لهم قلبى رحمـة فانه لا يحزننى فى الحياة مثل رؤية آثار التعاسة التى يجلبها الاجرام للمجرمين لقد رأيت فى الحلم مرة انى اتيت جريمة القتل ثم وقفت امام جثة المقتول وقد احسست دوارا وصار العرق يتصبب على جسمى وكنت احس جريه كانه دبيب الحشرات وقد جمد الدم فى عروقى واسودت الدنيا فى عينى وكلما اردت ان اتنفس احسست شيئا يسد مجرى النفس وكنت أحس صوتا كأنه صوت اعصابى تتقطع فيحكى صوت تقطع أوتار العود وكنت يخيل لى كأن يدا من جليد قد وضعت على ظهرى هذه الاحلام التى تمكن الاديب ان يعدم شخصه فى اشخاص غيره وأن يلج الى أرواح الناس وعواطفهم وان يرحم المجرم كما يرحم التعيس » .

وقال فى ص ٦٢ : « ليس من سبب لبغض المنتحرين وانتقاصهم الا حب الاحياء انفسهم وخوفهم من الموت . لقد حاولت مرة ان انتحر فرارا من سلطان القضاء فأخذت سكينا وأدنيتها من صدرى ثم قدرت مكان القلب وقلت هنـا ينبغى أن اضرب نفسى الضربة القاضية فلم تهن على نفسى فقلت الليلة الآتية افعل ذلك ولما اتت تلك الليلة ارجأت الانتحار الى ليلة اخرى حتى افكر فى طرق الانتحار واختار منها واحدة » .

وقد فكر فى الانتحار مرة أخرى لسـبب هذا خبره قال فى ص ٩٦ :

« انى لا ازال اذكر ذلك اليوم النحس الذى لطمنى فيه شقيقى لم يكن يدرى مبلغ اساءته فرفعت يدى لألطمه ولكن الجبن واخاه الحزم همسا فى اذنى قائلين انك اذا لطمته لطمك مرة ثانية وهو اقوى منك فلا تصببه الا ببعض مايصيبك فخير لك ان تتحمل اللطمة الأولى وان تنجو سليما فوقعت يدى الى جانبى واحسست أن روحى قد سلبت أجل شيء فيها فنظرت الى ما بين قدمى لأرى ما سقط منها من العزة والانفة والشجاعة ثم احسست كأن عظامى قد احترقت

ولم يبق الا رمادها وخارت قواى وعرتنى حيرة وشككت فى الحياة فجعلت أعدو من الفيظ وقد اسودت الدنيا فى عينى وجعلت انظر الى المارين وهم ينظرون الى فارميهم بلحاظ المقت والكره لانى كنت احسبهم يسخرون بى ويعرفون ما حدث لى ويفهمون سر روحى التى اهينت ولم تعد تصلح للحياة ثم وقفت على غدير وهممت أن ارمى نفسى فيه ولكنى هزأت بنفسى تلك النفس التى تفر من اللطام الى الحمام ثم ذهبت الى البيت .. وخطر لى (أن أتأبط سكينا او مسدسا وأن أنتقم من ذلك الشقى فأقتله) ولكن الحزم والجبن وهما سميراى ونصيحاى الاحا لى بالقضاء والمحاكم فجعلت أقرض اسنانى من الفيظ حتى تكسر بعضها وكنت فى حالة من حالات (الجنون) اهـ

على أنه تشجع مرة بعد هذه وأراد أن يظهر أنفته وعزة نفسه فوقع له هذا الحادث المضحك نرويه تفكهة بعقب هذه المرارات .

قال فى ص ٩٨ :

« فلما احتدم الجدال بيننا وخفت أن يبدأ اللطام بدأته به فان المبادرة نصف الظفر فبادرته بلطمة بين عينيه وكنت أريد أن يخر مغشيا عليه منها ولكنى خفت أن أفقأ عينه أو أن أصيب أحد أعضائه بتلف دائم او ان تكون ضربتى هى القاضية فتعود على بالطامة وبالعقاب الشديد .. كل هذه الخواطر جالت فى ذهنى عندما سددت يدى لألطمه ومن أجل ذلك لم يكن وقع اللطمة عليه شديدا فمد الى يده باللطام ولكن يخيل لى أنه لم يخش ما خشيت من العقاب وانما استنتجت ذلك من وقع لطماته فانصرفت بانف مهشم وعين سوداء حمراء زرقاء كأنها قوس قزح » .

وقلنا عن شكرى انه ابكم فكأننا اخترعنا شيئا وحسب البعض ممن يظنوننا نلقى القول على عواهنه ولا نبالى أين وقع من الحقيقة أننا نستطيل بلساننا عليه مبالغة فى ايجاعه وتنقصه والزراية عليه

ولهم العذر اذ ما أدراهم أنه هو القائل فى ص ٣٩ من الاعترافات :

« انى فى خلوتى بنفسى اعد الكلام البليغ والحجج الراجعة والكلمات البليغة وأتخيل محادثات تجرى بينى وبين الناس تكون كل كلمة من كلماتى فيها آية من آيات البلاغة ولكنى اذا لقيت هؤلاء وحادثتهم لم أجـد فى كلامى هذه الآيات البينـات . ثم اذا خلوت بنفسى بعد ذلك اقول كان ينبغى أن اقول لهم كذا كـذا فينطلق لسانى بالكلام الفصيح البليغ . ولكن أى مزية فى أن يكون المـــرء (عييا) فى المجالس فصيحا فى الخلوات ؟ وهذا سبب من أسباب انفرادى ووحدتى . ويرى الناس (سكوتى) ووحدتى فيحسبون حياتى هادئة مطمئنة » .

وليس الأمر عنـــده من قبيـــل صـــمت المفكر او المحزون او قليل الكلام فى العادة بل هو داء قديم مستعصى . قال فى صفحة ٤٧ من الاعترافات :

« لقد كنت فى صغرى كثير الحياء وكنت انظر الى جرأة اترابى من الغلمان (وحسن لهجتهم) وأعجب بها وأتمنى أن أكون مثلهم . أذكر أن أبى زار بى صـــديقا له من الفرنسيين وكنت صغير السن وكان لصاحب البيت ابن فى عمرى فجاء الغلام وصافحنا وحيـــانا (بفصاحة وطلاقة ورشاقة) أعجب بها المحاضرون وصاروا ينظرون الى ويضحكون » .

ولا تظن بنا الآن حاجة الى استقصاء « الجنـــون » فى شعره بعد اقراره به وتقريره أنه جرع كأسه المرة وانه وصل الى أعماقه وأنه يحس بجنونه ويعرف أسبابه ونتائجه لا كأولئك البيمارستانيين البلهاء الجهلاء الذين لا يعرفون أنهم مجانين

وفى الناس كا ابون حتى على انفسهم ولكنا عاشرنا شكرى اعواما طويلة رحالطناه وبلوناه ولا نراه بالغ فى شيء مما وصف به نفسه بل لعله آثر السكوت عن أشياء يعرفها عنه كثير من خلطائه وملابسيه . ولا يمكن أن يقال فى الرد علينا وفى تبرئة شكرى مما قرف به نفسه أن « الاعترافات » صاحبها رجل آجر اسمه م . ن وأن شكرى ليس الا ناشرا لها فان هذه الاعترافات ليست الا طائفة من المقالات لا يربطها شيء الا ضمح المتكلم وقد نشر شكرى أكثرها فى « الجريدة » بين ١٩٠٩ و ١٩١٣ بتوقيعه على أنها له ثم عاد فجمعها فى كتاب طبعه فى ١٩١٦ ويرى قارىء الاعترافات أبيات شعر كثيرة واردة فى اثنائها وفى الهامش أنها من شعر المؤلف وصاحب الأبيات هو شكرى وربما ذكر اسم القصيدة التى هى منها وقد يعين الجزء من ديوانه الذى وردت فيه .

ومما هو خليق أن يبعث القارىء على الركون الى هذه الاعترافات وتصديقها.انه يجد مصداقها فى شعره فكما انه قال فى الاعترافات فى نفس القديس جرثومة الاجرام كذلك قال فى شعره « فقد اغرم الانسان بالشر والأذى » وقال :

كل نفس فيهـــا الخير والشر

دواع طويـــلة الاغفـــاء

وقال معترفا انا اليوم برىء ولكنى ربما كنت فى غد مجرما ومن شعره

ربمـا شب بـين جنبيك للشر

ضرام ما ان له من فنـــاء

انت فى اليوم واسع الجاه غض ال

خير لـــدن الرخاء رطب الرجاء

خالص الكف من دمـــاء قتيـل

ابيض الطبــــع لم يشب برياء

ربمـــا كنت لى غــد اشعث الطبـ

ع لئيم الخصـــــال جم الشقاء

خاصب الـكف من دماء عــدو

طــائر الضغن ثائر الشحنـاء

وقلنا ان ذهنه مشغول بخواطر الاجرام والقتل واورنا بدأ من اعترافاته وفى شعره شواهد كثيرة على ذلك فمنها قصيدة « الزوجة الغادرة » وهى قصة امراة ارادت أن تسمه فسمها هو :

وهى قد افرغت لى السم فى كوبى

وقامت تمـر غـير بعيـــد

ثم غافلتهـا وافــرغت كــوبى

فــوق ماء بكوبهـــا منزور

ثم نلنـــا من الطعــــام بلاغا

وشربنـــا بــرءا من التصريـد

ثم جاء اليوم الجديد فنـــامت

زوجى الرود نـومة المقبـــور

فصـل السـم فعله فى حشــاها

ودهاها من الـــردى بقيـــود

ومنها قصيدة عنوانها « أم أسبرطية قتلت ابنها » وهو فيهـا يبرر هذه الجنـاية لانه فر من الحرب قال وقد نسى انه هو ايضا جبان حتى فى مواطن « اللطام »

أيهـــا الخائن الجبان خشيت الـ

موت والموت حـادث مقـــدور

ان اما تعزى لهـــا قتلت فى

قتلك العـــار لم يصبهـا معيب

ومنها قصيدة اسمها « قبلة الزوجة الخائنة »

قـــد قبلتنى قبـــلة مرة
كانها من حمـــة العقـــرب

تنهش جـــاها لم يكن نهـزة
لشـــاحذ الانيـــاب والمخلب

لولا وميض الرأى يقتـــادنى
يعيـــدنى من سفه المغضب (!!)

جللتهـــا بالسيف امحو بـه ال
ذنب بـــذنب رائـــع معجب

وتأمل فى هذه الأبيات همس « الجبن وأخيه الحزم » وكيف انه يصف الجريمة بانها رائعة معجبة . ومنها قصيـدة العقاب بالقتل وفيها يعذر المجرم

اطيلـوا حيـــاة الجارمين فانهـا
حيـاة اذا ســـد المطامع عاقر

لقـد اخلفتهم بلغـة العيش برها
زمانا وحابات الحيـــاة غـوادر

فبئس حيـاة المرء والفقر عاكف
عليه واسـباب الحيـــاة جرائر

هنـــا لك انى للفقير لعـــاذل
وانى لـه ممـا يعانيـــه عاذر

كأن كل من يجرم يكون باعثه الفقر والخصاصة : وله عدا ذلك أبيات كثيرة فى تضاعيف شعره كقوله يخاطب حبيبه

فلو كنت بين النـــاس ربا معززا
ونادوك انى فاتك النفس جـــارم

لالفيت غفرانا لديك ورحمة
فما يغفر الزلات الا الأعاظم

وقوله :

رحت أسعى كمصحر بان عنه ال
صحب فردا ذا وحشة واطراح

او كذى الجرم حين طال به السجن
يضل الطريق عند السراح

وقوله :

كان هموم المرء ذئب مراوغ
فيا بؤس مقتول ويا بؤس من نجا

وفى واعترافاته انه يحلم بانه اتهم بارتكاب الجنايات وكذلك فى شعره

يرى الناس ان النوم أم رحيمة
ولكن نوم الجارمين عقاب

يسل على الحلم أسياف نقمة
فاحلام نومى كالجحيم عذاب

كم هد من عزم صليب عذابها
وشيب وراد الذنوب فشابوا

ومنها :

وغيرنى عما عهدت جرائرى
فليس الى الحال القديم اياب

فلا تحسبن الشر يمحى بتوبة
وان غفر الجرم العظيم متاب

يواقع كل الناس بالفكر شرهم
وقد عابنى انى جرؤت وهابوا

وكم حدثت بالشرذا الخير نفســه
وذاك حــديث ما عليــه عقـــاب

وقد شبه فى اعترافاته الجريمة بالسراب وجعل للشر ضـــياء وكذلك فعل فى هذه القصيدة

ظمئنا فخلنا الشر فى العيش منهلا
لــكن ورد الجـــــارمين سراب

وقد حدثته نفسه بقتل حبيبه وبرر ذلك ولم يرفيه مأثما

وان بقلبى من جفـــائك (جنة)
فان رام يوما قتلـــكم ما تأثمـــا

فاسقى جنـــونى من دمائك جرعة
وهيهات يجدى القتل قلبـــا مكلما

الى آخر ذلك فان المقام يضيق عن تقصيه وما بقى من شك فى أن الرجل ممسوخ الطبيعة

هذا هو شكرى قد رسمنا لكم صورته بقلمه وهذه هى صفاته وميوله ونزعاته واتجاهات ذهنه وكلها شـــاذ غير مألوف فى الفطر السليمة والطباع القويمة كما نعرفها ويعرفها الناس فهل بالغنا اللهم لا ! وهل يخرج ممن كانت هذه حالة شعر سليم ؟ كيف والطبع أعوج والذهن مقلوب والعين تنظر الى الحياة من منظار معكوس يريها الأشياء على غير حقيقتها وعكس نسبها وعلاقاتها ؟

« ابراهيم عبد القادر المازنى »

فهرس

الجزء الأول

الجزء الثانى

رقم الإيداع بدار الكتب

١٩٩٦/١٤١٣٢

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

مَطابعُ مؤسسَة دار الشعب - للصحافة والطباعة والنشر
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت : ٣٥٥١٨١٠١ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠